الباب الثانى

الشاعر الأندلسى ـ أغراض الشعر الأندلسى ـ شعر الطبيعة

الفصل الأول

الشاعر الأندلسى وطرق التعليم

تهيأت لأهل الأندلس أسباب الشعر ، وتوافرت لديهم دواعيه ؛ فطُبعوا على الشغف به ، وانبسطت ألسنتهم بقوله ، حتى قل أن تجد منهم من ألمَّ بطرف من الآداب ولم يقل شعراً .

وقد كان لطبيعة الأندلس الزاخرة بالمفاتن أثر كبير فى طبعهم على هذه الشيمة ، حتى لم تخل مدينة من مدنها من شاعر حاذق ، أو كاتب بليغ كما يقول ابن بسام فى مقدمة ذخيرته .

ولم تقتصر الرغبة فى الشعر والارتياض بنظمه على الرجال ، بل عدتهم إلى النساء ، فنبغ منهن شواعر يكدن يضاهين الشعراء عدداً ؛ وكان منهن طبقة من المحسنات البارعات ، كولاَّدة بنت المستكفى ، وتلميذتها مهجة القرطبية وحَمْدة بنت زياد المؤدب المعروفة بخنساء المغرب وحفصة بنت الحاج الرَّكُونية ، وعائشة بنت أحمد القرطبية ، ونزْهون القلاعية الغرناطية ؛ . . وكنَّ جميعاً موصوفات بالجمال والظرف ، إلا عائشة فقد استغنت بالفهم والأدب والفصاحة[1] .

وقد كان للشعر حظوة لدى الملوك ، فنبغ منهم شعراء ، ودرجوا على استيزار الشعراء فكان الوزير نديم الملك وشاعره ومدبر مملكته بآن . فاعتزَّ الشعراء بذلك ، وسمَت مكانتهم ؛ وحفلت بهم دور الأمراء ودرَّ عليهم الرزق ، فنعموا ، وترفوا ولهوا وعبثوا إلا أنهم كانوا أبداً مهددين بزوال النعمة ، لوشاية حاسد ، أو مكيدة مبغض ، أو خشية ملك أن يستقل الوزير بالأمر دونه ، كما اتفق لابن زيدون عند بنى جهور ، ولابن الخطيب عند بنى الأحمر ؛ . . وقد تُحدِّث الوزيرَ نفسُه

---

(١) للبحث عن أخبار هؤلاء النساء انظر : نفح الطيب ، فصل : الأديبات من نساء الأندلس ج ٢ ص ١٠٧٦ – ١١٤٨ .

بالملك ، فيظهر مَلِكه على رغبته ، فيوقع به ، كما صنع المعتمد بن عباد بوزيره الشاعر ابن عمار .

إلا أن هذا لم يكن شأن جميع الشعراء ؛ فقد عجز فريق منهم عن التقرب من السلطان ، أو الوصول إلى الوزارة فظلوا ، على نباهتهم ، مغمورين خاملين .

ولم تخل حياة الشعراء من مضايقات ، وأعنفها ما كان يلقاه بعضهم من لفيف من الفقهاء ، كانت تدفعهم غيرتهم الدينية إلى أن يوقعوا ببعض من عرفوا بزيغ أو مجون أو خلاعة ؛ كما جرى لابن هانئ ، فقد نفاه أمير إشبيلية خوفاً من الفقهاء والعامة . لما بدا فى شعره من آثار الخلاعة ، والمجاهرة بما يمس العقيدة .

على أن شعراء الأندلس وأدباءها ، على ما أوتوا من طبع صقلته الطبيعة ونمته المرانة ، لم يكن لهم بد من ثقافة تعينهم وترفد طبعهم ، وغرضنا من هذا الفصل أن نتحدث عن طرق انتشار الثقافة فى ذلك الصقع ، ومادة هذه الثقافة ، وعن الآثار الهامة التى كان الشعراء يتدارسونها ، لنضع أيدينا على ينابيع ثقافة الشاعر .

* * *

كانت العربية لغة الأندلس الرسمية ، بها تجرى المكاتبات والمراسلات ، برغم جنوح لغة التخاطب إلى العامية ، واستعمال بعض الفئات اللغة البربرية ، أو الرومانية ؛ . . وكان الخلفاء ورجال الدولة يقرِّبون من يحسن العربية ؛ ويتنافسون هم أنفسهم فى دراستها وإجادتها ، ويعملون على استجلاب الكتاب والشعراء إليهم ، ولم يكن التنافس بين الأمراء والحكام مقصوراً على الجانب السياسى ، بل كان يشمل الناحية الأدبية أيضاً ، وكان كل أمير يعمل على أن يكون فى كنفه من الكتاب والشعراء ما يفوق ما لدى منافسه عدداً ومكانة ؛ بل كانت المنافسة فى هذا الباب تدفع الواحد منهم أن يقتنص مَن لدى منافسه من أدباء أو شعراء كبار ، كما فعل المعتمد بن عباد ملك إشبيلية بابن الأرقم وزير المعتصم بن صمادح صاحب المرية وكاتبه الخاص ، وإن كان لم يوفق فى مسعاه .

والمقرى فى نفح الطيب يروى من الأخبار ما يدل بصراحة على مدى اهتمام الحكام بالكتاب النابهين المالكين زمام العربية ، المقتدرين عليها ، كما يدلنا على

احتقارهم لمن قلّ نصيبه منها ؛ ومن هنا كان تعلّم العربية والتمكن منها ضرورة لمن يريد أن يصل إلى ديوان الإنشاء .

ولما كان الشاعر يتولى فى كثير من الأوقات وظيفة كتابية بوصفه وزيراً ، كان عليه أيضاً أن يكون واقفاً على أصول الإنشاء مجوّداً للكتابة ، وإذا كان اهتمام الشعراء بالكتابة وفن إنشاء الرسائل ضرورة تقتضيها مهنتهم ككتاب فى دواوين الإنشاء ، فقد كانت الكتابة أيضاً نتيجة لميل أدبى متأصل فيهم ، وقد رأينا كيف أدى العطف الذى أبداه الخلفاء والأمراء نحو الأدب والمتأدبين إلى كثرة الكتاب والشعراء وإلى ازدهار الأدب ولا سيما فى زمن ملوك الطوائف ، ولكن هذا العطف لم يكن السبب الوحيد فى هذا الازدهار بل إن أسلوب تعلم اللغة العربية والتثقف بالثقافة الأدبية العامة كان لهما أيضاً أثر كبير فى نهضة الأدب وازدهاره فى بلاد الأندلس .

فما هى طرق هذا التعليم ؟

لدينا كثير من الأخبار التى تشير إلى طرق التعليم والثقافة الأدبية فى البلاد الأندلسية . ويكفى أن نجمع ما يكتبه بعض المترجمين والمؤرخين لحياة كاتب أو شاعر أو عالم عاش فى الأندلس لنعلم ما كان يدرسه هذا الكاتب أو ذاك الشاعر ولنعلم الطريق التى كان يتبعها فى شبابه وفى باقى أيام حياته .

ويحسن أن نضيف إلى هذه الأخبار ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته فى الفصل الواحد والثلاثين عن « تعليم الولدان واختلاف أمصار المذاهب الإسلامية فى طرقه » فهو فصل قيّم أشار فيه إلى طرق التعليم فى بلاد المغرب وفى بلاد الأندلس وقارن بين مختلف هذه الطرق . ويتبين من قراءة المقطع الخاص بالأندلسيين[1] أنهم

---

(١) « . . . وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذى يراعونه فى التعليم ، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا فى التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر فى الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشىء فى العربية والشعر والبصر بهما وبرز فى الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة » . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٣٨ .

كانوا يعنون بتعليم العربية والشعر قبل العلوم الأخرى وإلى جانب القرآن الكريم أيضاً ليتفهموه ، على خلاف أهل المغرب والمشارقة الذين كانوا يبدءون بتعليم القرآن الكريم دون سائر العلوم ؛ وقد فضّل القاضى أبو بكر بن العربى (٤٦٨ — ٥٤٣ هـ) طريقة أهل الأندلس ونصحها للمشارقة « لأن الشعر — كما قال أبو بكر ابن العربى — ديوان العرب ويدعو على تقديمه وتعليم العربية فى التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر عليك بهذه المقدمة » [١].

فنلاحظ أن الثقافة الشعرية واللغوية كانت أول ما يتعلمه الطالب فى الأندلس ؛ فهنا إذن طريقة أندلسية فى التعليم ، هى أن العلوم الإنسانية لها مكان خاص إلى جانب العلوم الدينية . نعم قد يكون أهل المغرب (أى أهل أقصى شمالى إفريقية) قد قصروا أحياناً همهم على تعلم القرآن ولم يرغبوا بأن يمزجوا مع تعلمه علماً آخر ، إلا أن المشارقة قد لجئوا أيضاً إلى مثل ما لجأ إليه أهل الأندلس واهتموا أيضاً بالعلوم الإنسانية ، ولا يهمنا كثيراً أن يبدءوا بالقرآن أو بالشعر واللغة ، فقد كانت هاتان الدراستان متصلتين ، ومن الصعب أن نفصل تعلم القرآن عن تعلم اللغة والشعر القديم لما بينهما من وشائج وثيقة ، وقد يكون من المستحسن لفهم القرآن أن نبدأ بدراسة اللغة ، كما شاء الأندلسيون وكما قال أبو بكر بن العربى ، فهى طريقة منطقية .

ويتساءل هنرى به رس[٢] عما إذا كان هذا المفهوم المنطقى للتعليم فى الأندلس ليس ناتجاً عن تأثير العرق الإسبانى الرومانى الذى كان أحد العناصر الهامة التى كونت شخصية الأندلسى ، ثم يضيف قائلا : إن الاهتمام ، فى الدرجة الأولى ، كان منصرفاً فى باقى البلاد الإسلامية إلى الأمور الدينية وقد تركت العلوم العقلية فى درجة ثانوية ، على حين كان الأمر فى إسبانيا على العكس ، إذ أخذت العلوم العقلية تحتل المكان الأول ، دون أن تهمل مع هذا العلوم الأخرى المشتقة من

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٣٩ .

(٢) انظر كتابه السابق ص ٢٥ .

القرآن والحديث ، وعلى هذا فقد أخذ الأندلسى يفكر فى الإنسان قبل الدين ، وأخذ التعليم يرمى إلى تنمية جميع مواهب هذا الإنسان بشكل متناسق .

هذه الملاحظات صائبة ، أما أن نستنتج منها أن المشارقة لم يهتموا بالإنسان لمجرد أنهم بدءوا بتدريس القرآن قبل الشعر واللغة ، فهذا أمر لا نوافق المستشرق عليه ، لأن القرآن الكريم دستور إنسانى يطل على أمور الإنسان وحياته ويشرحها إلى جانب ما له من صفة دينية ، ولا نستطيع أن نقر أيضاً أن الأندلسيين قد تخلوا عن دراسة الأمور الدينية تماماً عندما بدءوا بدراسة الشعر والأدب . نعم لقد اهتم الأندلسيون بالإنسان ولكن هذا الاهتمام لم يمنعهم من الاشتغال بالقضايا الدينية ، وكذلك فعل المشارقة فقد بدءوا بالدين ولكن الدين لم ينسهم الاهتمام بالإنسان[1] .

ومن دلائل النهضات الإنسانية فى شعب ما ، أن يهتم هذا الشعب بدراسة الإنسانيات القديمة وآثارها . فالنهضة الإنسانية الفرنسية فى القرن السادس عشر Humanisme تتمثل فى اهتمام الشعراء والمفكرين بدراسات الإنسانيات الإغريقية والرومانية . ولولا هذا العود إلى آثار الإغريق وتفهم عبقريتهم وتقليدهم فى الموضوعات والأساليب لما كانت النهضة الأدبية الفرنسية التى ظهرت منذ القرن السادس عشر وشعّت فى القرن السابع عشر .

وكذلك نحن ، فعودتنا إلى آثارنا القديمة ، إلى الشعر الجاهلى والأموى والعباسى ، إلى هذا الأدب الإنسانى الواسع ، دليل على رغبتنا فى المحافظة على إنسانيتنا الأدبية . والأدب الأندلسى ، كأدب إنسانى ، أخذ يتطلع إلى هذا التراث القديم ويغذى فكره الإنسانى بالشعر القديم وشعر صدر الإسلام وشعر المحدثين وآدابهم ، وإذا فهمنا الإنسانية بمعناها الفنى هذا ، حق لنا أن نقول إن كل أديب عربى ، سواء أكان شرقيًّا أم أندلسيًّا ، كان يرمى إلى هذه النزعة الإنسانية فى آثاره ودراساته وقراءاته إذا ما أراد لإنتاجه ولفنه النجاح .

---

(١) بل إن الأندلسيين لم يكونوا أقل حرصاً على علوم الدين من المشارقة إن لم يزيدوا عليهم فى هذا الباب ، ومصداق ذلك آثار علمائهم وفقهائهم ، بل إن الفقيه كان عندهم معظماً كما يقول المقرى : « وسمة الفقيه عندهم جليلة حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذى يريدون تنويهه بالفقيه ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى : فقيه ، لأنها أرفع السمات » . نفح الطيب ج ١ ص ١٠٤ .

فالتعليم الذى يتلقاه الشاعر الأندلسى إذن لا يختلف فى شىء كبير عن التعليم الذى يتلقاه الشاعر المشرقى ، وهو قبل كل شىء عودة إلى الآثار القديمة وحفظها وتفهمها وأحياناً تقليدها .

وقد أراد الأندلسى أن يكون تعلمه للشعر واللغة سابقاً لتعلم القرآن الكريم وسائراً معه ، كما أراد المشرقى أن يسبق تعلم القرآن دراسة الشعر والأدب ، ولا أظن أن الأندلسى والمشرقى استطاعا أن يجدا حدوداً فارقة بين هذا وذاك فى أثناء تلقيهما العلوم والمعارف الأولى .

* * *

وقد كان التعليم الخاص الذى لا تشرف عليه الدولة منتشراً فى كل مكان فى الأندلس ، فكنت ترى فى القرى الصغيرة ، كما فى المدن الكبيرة ، ما يشبه المدارس الابتدائية اليوم ، أما فى المراكز الهامة كقرطبة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة فكنت ترى حلقات التعليم على مختلف درجاته منتشرة فى المساجد . وكان هناك مدارس يشرف عليها أساتذة قديرون ، إلا أنه لم يكن فى الأندلس مدرسة جامعية على نمط المدرسة النظامية التى أسست ببغداد سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م . هذا وقد خسرت قرطبة مركزها الثقافى بعد زوال الخلافة عنها ، وأصبحت المراكز الثقافية موزعة بين طوائف الملوك ، فكان لكل بلاط مركز من مراكز الثقافة .

وجل هذه الثقافة كانت ترمى لجعل الأندلسى أديباً ، شاعراً أو كاتباً . وإذا ما نظرنا إلى المؤلفات التى كان يتداولها الأندلسيون تحقق لنا هذا القول .

فما هى هذه المؤلفات التى كان يقرؤها الأندلسيون ؟ سيجيبنا عن هذا السؤال أبو بكر محمد بن خير ، الأديب الذى توفى سنة ٥٧٥ هـ وترك لنا مؤلفاً هاماً عنوانه « الفهرسة » [1] يبين لنا فيه الدراسات والمؤلفات الشائعة فى عصره ، عصر ازدهار

---

(١) العنوان التام لهذا الكتاب هو : « فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف ، الشيخ الفقيه المقرئ المحدث المتقن أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموى الإشبيلى » طبعة المستشرقين Codera, Ribera Tarrago فى مدينة سرقسطة سنة ١٨٩٣ ، ونشر فى مجموعة : Bibliotheaca arabica-hispana, T. IX-X .

الأدب فى الأندلس ، ويمكن أن نعتبر هذه المؤلفات مقروءة فى مختلف العصور الأندلسية مع بعض الزيادة والنقص .

فهرسة ابن خير :

لقد خصص مؤلف هذه الفهرسة مكاناً كبيراً لكتب الحديث التى كان يتداولها الناس وكانت شائعة فى عصره . وقد كان اهتمام الأندلسيين بالحديث كبيراً منذ بادئ أمرهم ، ولا أدل على ذلك من كثرة من ترحّل منهم إلى المشرق فى طلب الحديث والوقوف على أمهات دواوينه وتلقيها عن جامعيها أو من رووا عنهم . ولذلك ليس غريباً أن نرى ابن خير يهتم بها فى فهرسته .

إلا أن القسم الذى خصصه لذكر المؤلفات الأدبية هو الذى يهمنا وهو الذى يطلعنا على ثقافة الشاعر والأديب ويعبر عن ميولهما . ونلاحظ أن أحدث كتاب يذكره المؤلف فى هذا القسم هو كتاب سقط الزند واللزوميات للمعرى ، وهذان الكتابان لا يبعد أن يكونا قد وصلا إلى الأندلس فى حياة المعرى أو بعيد وفاته .

يمكننا أن نصنّف هذه الآثار الأدبية التى يذكرها ابن خير فى عدة زمر : زمرة المختارات والدواوين ، وزمرة طبقات الشعراء ، وزمرة كتب الأدب ، وزمرة كتب اللغة والنوادر ، وزمرة كتب النحو :

١ ــ فمن كتب المختارات المعروفة نشير إلى المعلقات مع شرح ابن النحاس النحوى المتوفى سنة ٣٣٧ هـ ، ثم إلى المفضليات ، والأصمعيات ، وكتاب الحماسة لأبى تمام ، وأشعار الهذليين ، والنقائض بين جرير والفرزدق ، وكتاب اليتيمة للثعالبى .

٢ ــ أما الدواوين الشائعة فهى : ديوان ذى الرّمة ، ويذكر المقرى أن أبا بكر بن زهر كان يحفظ هذا الديوان ويقول إنه يحوى ثلث مفردات اللغة العربية ، ودواوين الأعشى وأبى تمام والمتنبى والصنوبرى (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ) ، وسقط الزند واللزوميات للمعرى ، وديوان أبى العتاهية . وإلى جانب هذه الدواوين يجب أن نشير أيضاً إلى الدواوين التى جلبها أبو على القالى من الشرق عندما رحل

إلى الأندلس وهى تشمل معظم الشعراء الشرقيين المعروفين لعصره (وقد أشار إليها ابن خير) .

٣ ــ أما كتب « طبقات الشعراء » التى تضم عادة مختاراً من القصائد مع نقد موجز ، فلم تكن عديدة ، ويذكر ابن خير منها كتاب الطبقات لابن قتيبة (المتوفى ٢٧٦ هـ) وكتاب الطبقات لابن النحاس (المتوفى ٣٣٧) .

٤ ــ ومن كتب اللغة لا يذكر ابن خير سوى كتاب الميسر والقداح لابن قتيبة والكامل للمبرد .

٥ ــ أما كتب النوادر فيذكر منها كتاب النوادر لعلى بن حزم اللحيانى . والنوادر لأبى زياد الكلابى والنوادر للحصرى .

٦ ــ ويذكر من كتب الأدب كتاب زهر الآداب للحصرى وكتاب الآداب لابن المعتز .

* * *

لا شك أن قائمة ابن خير هذه بعيدة عن أن تكون تامة . فهى لا تشير إلا إلى عدد ضئيل من الكتب المعروفة والمقروءة فى عصره ، وإذا كانت جميع الكتب التى ضمنها مكتبة الحكم[1] الفخمة ، قليلة عدد النسخ ، بعيدة عن أن تكون فى متناول عامة الناس، فإننا نزعم أن عدداً منها كان يتداوله الأدباء المقربون من البلاط الأموى ، وأن هذا التراث الأدبى ، عندما سقطت خلافة قرطبة لم يفقد بأجمعه ، وقد أدى التوزع السياسى الذى عقب هذا السقوط توزعاً أدبياً ، وتبعثر ما بقى من مكتبة الحكم فى مكتبات ملوك الطوائف وفى المكتبات الخاصة لبعض متذوقى الأدب .

ويمكننا أن نعتقد بأن كتاب الأغانى الذى كان الحكم قد اشترى نسخة من نسخه الأولى كان يُقرأ فى حلقات بعض مدرسى الأدب . ألم يزعم بعض المؤرخين وهو عبد الوهاب المراكشى فى كتابه (المُعْجب فى تلخيص تاريخ المغرب) أن

---

(١) بدأ حكمه سنة ٣٥٠ هـ .

ابن عبدون كان فى شيخوخته يتلو الأغانى عن ظهر قلب ؟ ومهما يكن من أمر فإن الذى يبدو لنا هو أن كتاب الأغانى قد لاءم — وهذا شىء طبيعى — ذوق الأندلسيين وميلهم للشعر والموسيقى ، وعلى رغم قلة النسخ التى كانت قيد التداول فقد أثر تأثيراً كبيراً فى الأوساط الأدبية وحلقات السمر المرهفة التى كانت منتشرة فى الأندلس وهناك إشارات فى نفح الطيب تفيد أن هذا الكتاب قد قلده بعض الأندلسيين ، فقد ألف يحيى الحدُجّ أديب مرسية كتاباً على نمطه يدعى كتاب الأغانى الأندلسية ؛ وأن أبا الربيع أحد أمراء دولة الموحدين وحاكم سجلماسة قد وضع له موجزاً .

وهناك مؤلفات أخرى هامة لدراسة اللغة العربية وآدابها لم يشر إليها ابن خير فى « فهرسته » ولكن لدينا وثائق تؤيد انتشارها فى الأندلس . من هذه الوثائق رسالة ابن حزم والحكايات الكثيرة التى يرويها المقرى فى نفح الطيب . وإننا ذاكرون الآن أهم هذه المؤلفات وهى : النوادر لأبى على القالى وأماليه وقد أملاهما فى الأندلس نفسها ، الكتاب لسيبويه وقد اهتم به أهل الأندلس وتدارسوه وشرحه شرحاً مطولا ابن المناصف[1] ، وكذلك فصيح ثعلب كان له قارئوه من الأندلسيين ، أما كتاب إصلاح المنطق لابن السكّيت فلم يكن له قراء عديدون ومع هذا فقد كان ابن سيده يحفظه . وهناك كتاب نال حظوة كبيرة لدى الأندلسيين هو كتاب أبى عبيد القاسم بن سلاّم الهروى (وفاته سنة ٢٢٣ هـ) المسمى « الغريب المصنَّف » . فقد قرأه أبو على القالى وحفظه ابن سيده وقرظه ابن حزم فقال إنه أكمل كتاب لمعرفة اللغة العربية . وقد حدث مرة أن استعصت على الشاعر الأبيض قضية لغوية فأقسم أن يقيد نفسه ، كما فعل الفرزدق ، حتى يحفظ هذا الكتاب ، ولما رأته والدته على هذه الحال تساءلت عما إذا كان أصاب ابنها مس من الجنون .

وهناك كتاب آخر لابن قتيبة ذكره ابن خير فى فهرسته وكان شائعاً أيضاً هو « أدب الكاتب »[2] وقد شرحه ابن السيد البطليوسى أحد نحاة بجاية فى القرن

---

(١) كثير من الشروح التى وضعت لهذا الكتاب كانت أندلسية ، انظر : تاريخ آداب العرب للرافعى ج ٣ ص ٣٣٢ — ٣٣٤ .

(٢) لقى هذا الكتاب حظوة كبيرة عند الأندلسيين والمغاربة حتى قال ابن خلدون فى مقدمته =

الحادى عشر الميلادى ، أما الكامل للمبرد فقد أقبل الأندلسيون على دراسته بكثير من الشغف والاهتمام ، وقد جاء به ابن أبى علاقة من الشرق فى زمن الحكم المستنصر ، فنال شهرة كبيرة وطفق أدباء الأندلس يتدارسونه ويشرحونه ، وحفظه عدد كبير منهم ، نساء ورجالا . وقد حملت هذه الشهرة بعض اللغويين فى الأندلس أو من القادمين إليها على تقليده فألف صاعد اللغوى ، وهو نحوى شهير قدم الأندلس زمن طوائف الملوك ، كتاباً أسماه « كتاب الفصوص » حذا فيه حذو المبرد فى الكامل .

ومن البديهى أن ابن خير لم يسجل فى فهرسته جميع المؤلفات الأدبية التى كانت تدرس فى عصره وفى العصر الذى سبقه مباشرة ، ولذا كانت الإشارات التى يذكرها ، فى هذا الصدد ، اللغويون وعلماء البلاغة والأدباء ، كانت ذات قيمة هامة ولا سيما إشارات ابن رشيق صاحب كتاب العمدة .

أما أبو نواس فهو فى طليعة الشعراء الذين اهتم الأندلسيون بهم واستساغوا شعرهم وأحبوهم . أما ابن الرومى فكانوا ينظرون إليه نظرتهم لشاعر هجّاء ، ويعجبون بوصفه للطبيعة ويحفظون له أشعاره فى تفضيل النرجس على الورد ، وقد نظم فى هذا المعنى كثير من شعراء الأندلس أشعاراً تعارض ابن الرومى .

وكذلك البحترى فقد كان محط إعجاب الأندلسيين ، وقد لجئوا إلى طريقته فى النظم ، حتى إن ابن بسام عندما وصف شعراء الأندلس لم يجد لمدحهم غير تشبيههم بالبحترى فقال ما معناه :

« وكانت طريقتهم فى النظم مثالية فهى طريقة البحترى فى رقته وجزالته وعذوبته وشدته » .

أما المتنبى ، وقد ملأ الدنيا كما يقول ابن رشيق ، فقد وصل تأثيره إلى المغرب الإسلامى وبخاصة الأندلس . وإذا كان لم يستطع أن يطمس أثر البحترى وابن المعتز فقد استطاع أن يشغل أذهان الناس وأضاف إلى قوة النظم فكرة

= ص ٥٥٣ : « وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن « الأدب » وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها » .

الفيلسوف ، حتى أصبح ديوانه موضع اهتمام ودراسة ، فشرحه الإفليلى المتوفى سنة ٤٤١ هـ وابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ . وذكر ابن بسام عدداً من أشعاره التى نسج على منوالها كثير من شعراء الأندلس . ويظهر أن المعتمد هو أول ملك من ملوك الطوائف اهتم اهتماماً كبيراً بالمتنبى ، حتى إن إعجابه بشاعرنا العربى الكبير قد أزعج الشعراء المحيطين به .

ولم تقف إسبانيا المسلمة عند المتنبى فقط فى إعجابها ، بل هناك شعراء شرقيون آخرون قد جلبوا انتباهها ، فابن خفاجة الذى يُعدُّ شاعر الطبيعة الأول فى الأندلس والذى لم يكن سوى مقلِّدٍ عبقرى ، يعترف بأنه مدين فى أكثر وحيه إلى شعراء مشارقة كالشريف الرضى الموسوى (وفاته ٤٠٤ هـ) وعبد المحسن الصورى (وفاته ٤١٩ هـ) [١] ومهيار الديلمى (وفاته ٤٢٨ هـ) . ولا يصعب علينا أن نبين ما أخذه عن البحترى والصنوبرى[٢] من معان وأخيلة تتعلق بوصف الطبيعة ، حتى إنه كان يلقب بصنوبرى الأندلس .

ويدهشنا ألا يذكر ابن خير للمعرى غير سقط الزند واللزوميات بينما نلاحظ أن رسالة من رسائل أبى العلاء المسماة « الصاهل والشاجح » قد قلدها أحد أولاد الأندلسى ابن عبد الغفور تحت عنوان « الساجعة » وهذا الأمر ذكره ابن خاقان فى المطمح والمقرى فى نفح الطيب ، ونص هذه الرسالة لا يوجد إلا فى الذخيرة . ولهذا نستبعد ألا يكون هناك مؤلفات أخرى لأبى العلاء قد عرفها الأندلس [٣].

* * *

(١) يظهر أن ديوان هذا الشاعر قد ضاع ، انظر ابن خلكان .

(٢) مقطوعات الصنوبرى المتفرقة جمعها محمد راغب الطباخ تحت عنوان الروضيات ، حلب ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م .

(٣) يشير المؤرخون إلى أن أبا عامر بن شهيد (٣٨٢ — ٤٢٦ هـ) كان مولعاً بآثار المعرى حاذياً حذوه . ويقال إنه عارض (رسالة الغفران) للمعرى برسالته (التوابع والزوابع) التى أورد ابن بسام فى الذخيرة أقساماً كثيرة منها . وقد أفردها بالنشر بطرس البستانى عام ١٩٥١ فى بيروت ، معتمداً على ما جاء منها فى الذخيرة . ويزعم المستشرق بروكلمان أنها صنفت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة ، إلا أن بطرس البستانى يرى أنها لم تتقدم رسالة الغفران بأكثر من تسع سنوات ، وليس لدينا ما يثبت أن أبا العلاء قد اطلع عليها .

هذه هى أهم المؤلفات التى كان يدرسها الشاعر والأديب ورجل الفكر فى الأندلس ، وكان من جراء تأثير اختلاط الأندلسيين بالبيئات الأجنبية المحيطة بهم أن انتقلت إليهم كثير من النزعات الإنسانية فجعلت لهم تفكيراً خاصاً تميز بنزعة إنسانية جديدة ظهرت فيهم تحت تأثير اطلاعهم على الآثار اليونانية التى انتقلت إليهم من الشرق أحياناً وعن طريق الغرب والإسبانيين أحياناً أخر . فائتلف حبهم للعلم مع حبهم للآداب ، وأرهفت الفنون ذوقهم الشعرى ، وأخذت الصفات الحربية تضعف فيهم وشرعوا ينظرون إليها كشىء يمكن إهماله بجانب المشاغل الفكرية . فلا نعجب بعد هذا إذا رأينا الشاعر الأندلسى يحيي الفكرة القديمة ويطبعها بطابع إنسانى كنتيجة للأثر المسيحى الرومانى الذى أحاط به . وسنرى أن الأدب الأندلسى قد استطاع أن يتلون بهذا اللون الجديد دون أن تمحى تقاليده الشرقية .

الفصل الثانى

طبقات الشعراء ، حياة الشاعر وشروطه الاجتماعية

إن الكتب التى ذكرناها بينت لنا مدى ثقافة الشاعر الأندلسى بشكل عام ، وبينت لنا أيضاً لون هذه الثقافة . وقد رأينا كيف كان الشعر الدعامة الأولى لهذه الثقافة يتدارسونه مع القرآن الكريم إن لم نقل قبله ، وكيف كان الناس فى الأندلس مطبوعين على قول الشعر مشغوفين به ، فهل كان الشعر ملكاً لطبقة خاصة من الناس ؟

إننا إذا ألقينا نظرة على الشعب الأندلسى رأينا أن الشعر قد استطاع التغلغل فى مختلف طبقاته ، فلم يقتصر على الأمراء وعلية القوم الذين أخذوا يدرسونه وينشدونه منذ شبابهم مستفيدين من ثقافتهم التى جاءتهم عن طريق التعليم ، بل كنا نرى أناساً من عامة الشعب لا يعرفون القراءة والكتابة محرومين من الثقافة ينظمون الشعر ويتذوقونه . ولعل هؤلاء قد اكتسبوا هذه القدرة على النظم بعد أن تقدمت بهم السن ، وبعد أن اختلفوا إلى بعض الحلقات العلمية واستمعوا بدافع ميل شخصى عفوى إلى ما يقوله المتأدبون والعلماء فى دروسهم فنما فيهم ذوقهم الفطرى . فقد كان المدرسون يقبلون فى حلقاتهم أى شخص كان على أن يكون لديه الاستعداد الفطرى لتذوق ما يسمع ، ومن هؤلاء الشعراء الأميين ابن لبال الأمى أستاذ ابن عبدون .

ويمكننا أن نحشر العميان فى زمرة الشعراء الذين لا يعرفون القراءة والكتابة . وكثيرون فى الأندلس الشعراء الذين يحملون لقب الأعمى أو الضرير أو المكفوف . ويشير الصفدى فى كتابه (نكت الهميان) إلى عدد كبير منهم ، ممن امتازوا بالعلم والأدب ، كالنحوى ابن سيده الذى عاش فى مرسية ، والشاعر الوشاح الأعمى التطيلى الذى عاش فى تطيلة .

وهناك شعراء من أصل متواضع ، أو من أرباب المهن ، كانوا على جانب بسيط من الثقافة ، ويحدثنا ابن عمار شاعر المعتمد ، وهو من أسرة متواضعة ، عن الفائدة التى يمكن أن يجنيها المرء من مخالطته هذه الجماعات الكادحة التى تسعى جاهدة فى سبيل نيل قوتها اليومى ، وقد كان ابن عمار قبل أن يصبح شاعر المعتمد يخالط هذه الأوساط باحثاً فيها عن موضوعاته الأدبية مدركاً ما يمكن أن يستفيده الشاعر من صور جديدة وتشابيه مستمدة من واقع الحياة . وابن عمار هو الذى اكتشف الشاعر ابن جامع وقد كان صباغاً فى مدينة بطليوس . أما أبو تمام غالب بن رباح وهو حجّام فى قلعة الرباح فقد اشتهر بشعره الواقعى ونظم شعراً يصف الجروح والقروح وافتراس الطيور الجارحة لأحشاء القتلى وصفاً واقعياً تشمئز منه النفس أحياناً .

ومن بين الشعراء الذين انبثقوا فى طبقات متواضعة ، يمكننا أن نشير إلى هؤلاء الذين كانوا يعيشون فى الحقول وكانت مهنتهم الزراعة ، ولا شك أن نشاطهم الأدبى كان ذا قيمة . فالحياة فى الحقول ليست دائماً عملا مرهقاً ، إنها تترك فسحات للأحلام ، ولا نكون مغالين إذا قلنا إن الشعر الشخصى هو ما كان منبعثاً عن أولئك الذين عرفوا الطبيعة وتحسسوا بجمالها . والميزة التى امتاز بها بعض شعراء الأندلس الذين تأثروا بالطبيعة كابن خفاجة مثلا هى أنهم لم ينظروا إليها كشىء خارج عن كيانهم بل وصفوها من خلال عواطفهم وأشركوها إحساسهم فجسّموها وشخّصوها ، وهذا ما فطن إليه الرومانتيكيون بعدهم ، ولاشك أن هذا الوصف العاطفى للطبيعة الأندلسية قليل إلى جانب الوصف المادى إلا أنه موجود كما سنرى ويجب أن يشار إليه عندما يبحث عن خصائص شعر الطبيعة فى الأندلس . ونلاحظ أن جمال الطبيعة وقساوتها قد انتقلت إلى أشعار هؤلاء النفر من الشعراء الذين مارسوا حياة الحقل ، وهم هؤلاء الذين استطاعوا بعد أن انتقلوا إلى حياة المدن الناعمة أن يعبروا عن أفكار قوية بصور جديدة ملونة ، وهم الذين منحوا الشعر الأندلسى هذا اللون الحقلى ، لون الشعر الرعوى[1] القريب

---

(١) هذا اللون من الشعر يسمى بالفرنسية La poésie bucolique

من أشعار بعض اليونانيين والرومانيين . وهو شعر يصف الطبيعة والحياة الحقلية فى رقة ظاهرة تذكرنا برقة أشعار الشاعر الغنائى اليونانى Anacréon[1] وهو ينشد نعيم الأرض وسعادة الطبيعة فى كثير من الانطلاق والجمال . وعديدون الشعراء الأندلسيون الذين تفتحت عبقريتهم فى أحضان الطبيعة ، فابن عمار نشأ فى الريف وقال فيه أول شعره ، وابن شرف أحس بشاعريته وهو فى قريته برجة ، ومنهم من غادر قريته إلى المدينة ولكنه لم يستطع الابتعاد عنها نهائيًا فعاوده الحنين إليها وفضل أن يقضى آخر أيامه فيها كما فعل الشاعر ابن مقانة الذى يتحدث عنه عبد الواحد المراكشى فى تاريخه عن الموحدين .

وكذلك كنا نلمس ذوقاً شعريًا وشغفاً كبيراً بالنظم فى الطبقات العالية والأرستقراطية . فها هو ذا المظفر بن المنصور كان مشغوفاً بالأشعار التى تصف الأزهار والمسماة بالنَّوريات ، وكان يقترح على الشعراء أن ينظموا فى وصف الحدائق والحقول كما يقول المقرى . ولم تكن السياسة والحروب لتشغل الأندلسيين عن الاهتمام بالأدب ، فها نحن أولاء نرى المستظهر بالله ، وكانت خلافته زمن الفتنة (توفى سنة ٤١٤ هـ) ، يعقد مجالس أدبية يشترك فيها أدباء مشهود لهم بالمقدرة كأبى عامر بن شهيد وأبى محمد بن حزم على رغم اضطراب الأمور من جراء العراك الشديد القائم ضد البرابرة .

وكذلك المعتضد فقد قرض الشعر ، ويحدثنا ابن بسام فى ذخيرته أن قصائده قد جمعت فى ديوان ، أما ابنه المعتمد ، فقد كان صورة صادقة للشاعر الأندلسى ، وفى عهده أصبحت إشبيلية قطب الحركة الأدبية والشعرية ، واستطاع بنو عباد أن يجمعوا فى دولتهم الزعامة السياسية والزعامة الأدبية . وكذلك بلاط المرية أصبح ملتقى الشعراء فى عهد المعتصم بن صمادح . أما بقية ملوك الطوائف فقد كان حبهم للشعر والأدب ظاهرة من ظواهر التباهى والتفاخر ، وأكثر من أن يكون حبًا خالصاً وذوقاً شعريًا مجرداً ، ولهذا لا نعجب أن نرى المظفر ملك بطليوس يقول إنه لا يقبل فى بلاطه شاعراً يقل عن المتنبى أو المعرى ، وكان من جراء ذلك أن ابتعد

---

(١) عاش هذا الشاعر فى القرن الخامس قبل الميلاد .

الشعراء عنه ، أما الذين جاءوه فقد دفعوا الثمن وأراقوا ماء وجههم فى مدحه والتملق له .

أما فى غرناطة ، فيظهر أن الشعراء ، فى بادئ أمرهم ، قد عاشوا فى خوف دائم لا سيما فى عهد الأمير باديس بن جبوس . وإذا كان هذا الأمير قد أكرم الأدباء كغانم المخزومى فذلك أنه كان يعتبرهم كفقهاء ، وقد أبعد كل من كان حرًّا فى رأيه . ولكن الأمراء الذين خلفوا باديس كانوا على عكس ذلك ، فقد أكرموا الشعراء والأدباء الذين كانوا يتوافدون على غرناطة ، وكان من بينهم من ينظم شعراً ، حتى إن الأمراء البرابرة ، كعلى بن حمود الناصر ، كان يلذ لهم أن يسمعوا الشعر ويحضوا الشعراء على نظمه . ونحن نعلم ما تمتعت به غرناطة فى أيامها الأخيرة من شهرة عظيمة وكيف كانت آخر نواة لقى فيها الشعر رواجاً ومتعة ورخاء .

ولنقل إن الاهتمام بالشعر والأدب كان على نفس الشدة فى بقية المراكز التى قام بها بلاط لطائفة من طوائف الملوك ، وإذا كان أمراء سرقسطة وطليطلة قد امتازوا بحبهم للفلك وللعلوم الرياضية فما نحسب أنهم ضنوا على الأدباء أو قصروا فى تشجيع الشعر والعطف على الشعراء .

أفلا يدهشنا إذاً هذا الرواج للشعر فى مختلف الطبقات الأندلسية ولا سيما فى زمن ملوك الطوائف ؟ إن مثل هذا الرواج قد لا نجده فى الشرق الإسلامى . فقد كان الشعر فى الشرق ، على الغالب ، إنتاجاً أرستقراطيًّا ، أما فى الأندلس فهو ظاهرة وطنية ساعدتها ظروف المحيط السياسية والاجتماعية والطبيعية ، حتى أصبح على فم كل إنسان . فهو فى نظر العامل والفلاح الأندلسى أنشودة تنسيه أتعابه ، وهو فى نظر الوزير والأمير هرب من مشاغل السياسة والإدارة ، وهو فى نظر الشاعر الرسمى أو شاعر البلاط سبب للرزق ، ولكن على رغم هذا الطمع المادى الذى أبداه شاعر البلاط فإنه ما كان لينسى النواحى الفنية ، بل لعله كان يجبر الفن على الانطلاق لينال إعجاب الممدوح . ويمكننا أن نقول إن الشعر كان فى نظر الأندلسى على الإطلاق رمزاً للفخر ، وما كان الأمير ليجد فى ممارسته

غضاضة أو نقصاً بل على العكس فخاراً ومجداً . ولهذا فالأندلسى رغب بالشعر للشعر ، لهذا التناسق الموسيقى الذى تختلج به الشفاه والقلوب ، ولأنه كلام مجنح وموسيقى قبل أن يكون ألفاظاً ، فهم يغنونه ولا يلقونه إلقاء .

والآن كيف يمكننا أن نختصر حياة الشاعر الأندلسى الذى نراه على الغالب منبعثاً من أوساط متواضعة ؟ وما هى الطريق التى يجب عليه أن يشقها ؟ لاشك أننا نُبعد فى أثناء الجواب عن هذا السؤال الشعراء والأمراء الذين لهم نمط خاص فى حياتهم وتربيتهم والذين كان شعرهم وصفاً لهذه الحياة مع اندفاعات خاصة رسمت إنسانيتهم وأشواقهم التى لم يستطيعوا التخلى عنها أو تناسيها .

فالشاعر الأندلسى ، وهو على الغالب من منبت متواضع ، يمكن أن تُختصر حياته بالكلمات الآتية : دراسة فى قرية متواضعة ثم فى مدينة كبيرة ، بعدئذ حياة هائمة قريبة من التشرد إلى أن يقترب من محسن أو أمير فيواتيه الحظ وينعم بالجاه والمكانة والمال وينغمس فى حمأة الدسائس .

ونرى أن أكثر الشعراء قد نشأوا فى الأرياف وقد لقنهم بعض النحويين النظامين علوم العربية والشعر ثم يقصدون المدينة . والحكايات فى هذا الصدد كثيرة مبعثرة فى المقرى وغيره من كتب الأدب ، فابن عمار عندما غادر قريته كان لا يملك إلا بغلته التى كان يمتطيها ، ومع هذا فقد أصبح وزيراً للمعتمد .

والشاعر ابن فضل بن شرف عندما قدم على بلاط المعتصم بن صمادح فى المرية كان فى ثياب رثة أثارت ضحك رجال البلاط حتى تساءلوا من أية صحراء هو قادم .

وهكذا فقد كان على الشاعر أن يجاهد للبحث عن المجد والمادة ، لا سيما إذا كان من طبقة متواضعة . ولكن حياة المجد التى كانت تنتظر الشاعر الناجح هى التى كانت تحثه على العمل ومواصلة السعى ، وهو برغم سعيه ما كان ليخفى المصاعب التى تعترض سبيله ، فالشعراء كثيرون والنقاد متهيئون ومن الصعب لمن لا يتحلى بالعبقرية والثبات أن يفترع له طريقاً فى هذا المضمار الوعر .

وكانت حياة الشعراء حياة تنقّل ، فالشاعر يحمل إنتاجه الشعرى ويطرق أبواب

الأغنياء والأمراء طلباً للجائزة وسعياً وراء المادة ، حتى ولو استقر به المقام عند أمير من الأمراء فقد لا يكون هذا المقام طويلا ، ويضطر الشاعر ، وقد شعر أن ممدوحه قد ملّ معانيه وشعره ، أن يغادر بلاط هذا الممدوح إلى بلاط ممدوح آخر ، وهو يظهر تذمره وشكواه مما لاقاه ويتألم من ممدوحه الذى لم يستطع إدراك مزاياه . وهذا التنقل سنراه شائعاً أيضاً عند شعراء التروبادور .

وشكوى الشعراء من سوء الطالع ومن سوء الناس وقلة فهمهم لهم ازدادت فى زمن المرابطين . حتى رأينا ابن بقّى يتهم اتهاماً قوياً المجتمع الذى لم يعد يقدر العبقريات ورجال الشعر ، ولاشك أن ابن بقّى قد نظر هذه النظرة الشديدة لمجتمعه عندما شعر ببعض الإخفاق ، وكان إخفاقه طعنة آلمت شعوره وأثارت سخطه حتى وصف أفراد مجتمعه بالجهلة والقساة . ومهما يكن من أمر فحياة الشعراء لم تكن دائماً حياة ضاحكة . بل هى كحياة أولئك التروبادور الذين كان عليهم أن ينشدوا ليعيشوا .

ولكن مهما اتصفت حياة الشاعر بالتنقل والتشرد ، فقد كان يعرف كيف يخضع نفسه لشروط معينة ولطاعة مذعنة عندما يصل إلى مدينة يحكم فيها أمير يرغب فى الدخول تحت زعامته . وهكذا يطرق باب قصر الأمير ويخصص له صاحب الإنزال (وهو موظف مخصص لإسكان الشعراء واستقبال ضيوف الأمير) مكاناً فى ملحقات القصر ، وأحياناً فى القصر ذاته عندما ينال الحظوة اللائقة التى تستدعى هذا الإكرام . وهنا تبدأ حياة الشاعر مرتبطة بحياة الأمير ، لا يترك مناسبة تمر دون أن يوجه له مديحاً يعدد فيه مناقبه وشجاعته وكرمه على طريقة الشعراء المشارقة مردداً معانى المدح التقليدية .

وحياة شاعر البلاط فى الأندلس لا تختلف فى شىء كثير عن حياة شاعر البلاط فى الشرق ، ولابد للشاعر بعد أن يدخل القصر ، أن يمثل بين يدى الأمير ليسمعه بعض شعره ، ويكون ذلك بمثابة امتحان له فإذا ما لاقى الشاعر استحساناً تمكن من البقاء . ومن الشعراء من استطاعوا أن ينالوا مرتبة عظيمة ويتقلبوا فى المناصب العالية وتغدق عليهم الأموال بعد أن أخضعوا شيطانهم للمدح والاستجداء .

فالشاعر الرسمى عبدٌ لصنعته وسيده ، وكلما خضع لدواعى مهنته كشاعر بلاط تضاءلت شخصيته ، ولكن هناك شعراء استطاعوا أن يلائموا بين مهنتهم ووحيهم الشخصى ، ومنهم من استطاعوا أحياناً أن يفروا من دواعى المهنة ويتركوا لطبعهم فرصة التحليق فى أجواء الخيال والتعبير عن هواجس النفس دون قيد أو إكراه .

ولا ننتظر من شاعر البلاط أن يقدم لنا صوراً جديدة أو شعراً ينحدر إلى أعماق القلوب ما دام خاضعاً لسلطان المهنة ودواعيها ، بل لنبحث عنها فى الشاعر الشخصى الذاتى الذى لم يُخضع شيطانه للمال بل جعله طوع قلبه وعاطفته وهواجسه ، ويمكننا أن نختم هذا البحث قائلين إن الشاعر الأندلسى فى صفتيه الرسمية والذاتية قد استطاع أن يرضى ممدوحه ونفسه وفنه .

الفصل الثالث

الآثار الأَدبية الأُولى وذِكْر لأَشهر الأُدباء والشعراء

ما إن تم للعرب فتح الأندلس حتى أخذت القبائل العربية تتقاطر عليها من أنحاء المشرق ، ولا سيما ديار الشام ، مستوطنة . وكان بين هؤلاء النازحين من عرف بالشعر وارتاض بنظمه ، إلا أن من الطبيعى ألا نعتبر ما أثر عن هؤلاء الطارئين شعراً أندلسياً يحمل طابع الأندلس الخاص وملامح الشخصية الأندلسية المتميزة ؛ إذ لا يعدو هؤلاء أن يكونوا جيلا مشرقياً تظهر فى آثارهم مسحة المشرق ؛ ولابد من تصرم حقبة من الزمن غير قصيرة لينشأ جيل أندلسى طبعه الجو الجديد بطابعه وظهرت فى تكوينه آثار طبيعة الأندلس ومناخها على نحو مستقل .

على أن هذه الأجذام العربية النازحة ، وما انحدر منها من سلالة أندلسية كانوا ، فى واقع الأمر ، أول تاريخ الأدب فى الأندلس « وقلما تجد فى الأندلسيين شاعراً مفلقاً أو كاتباً بليغاً أو عالماً ضليعاً إلا ونسبه فى قبيلة من تلك القبائل العربية »[1] .

هذا ، وقد حفظت لنا كتب الأدب طائفة مما أثر من شعر هؤلاء النازحين ، وفى طليعة هؤلاء عبد الرحمن الداخل الذى وطد الملك لبنى مروان فى الأندلس ، فالمقرى يذكر له خطباً ورسائل تشبه فى أسلوبها خطب الأمويين ورسائلهم فى آخر أيام دولتهم بالمشرق ، ويذكر له فوق ذلك شعراً يتمتع برقة الشعر الأموى وجزالته . ومنه ما بعث به إلى أخت له بالشام يصف فيه شوقه إليها وحنينه إلى بلده ووطنه الذى فارقه موجع القلب فاراً من سيوف العباسيين ، قال :

أَيها الراكبُ الميممُ أَرضى ... إِقْرَ بعضَ السلام عنى لبعضِ
إِن جسمى كما تراه بـأَرضٍ ... وفؤَادى ومالكِيهِ بـأَرضِ

(١) مصطفى صادق الرافعى ـ تاريخ آداب العرب ٣/٢٦٨ .

قُدِّر البَيْنُ بيننا فافترقنا وطوى البينُ عن جفونى غَمضى
قد قَضَى الله بالفِراق علينا فَعَسى باجتماعنا سوف يَقْضِى (١)

ومنه أيضاً هذه الأبيات التى تفيض بالحنين والشوق والتى قالها فى نخلة فريدة فى حديقة قصره بالرُّصافة الذى بناه على نسق رصافة الشام ، فهاجت شجنه وأثارت كوامن عاطفته :

تَبَدَّتْ لنا وَسْطَ الرُّصافة نخلةٌ تَناءَتْ بأَرض الغَرْب عن بَلَدِ النَّخْل
فقلتُ : شَبيهى فى التَّغَرُّبِ والنَّوى وطُولِ التنائى عن بَنِىَّ وعَنْ أَهْلى
نشأْتِ بأَرضٍ أَنتِ فيها غريبةٌ فمثلُكِ فى الإقصاءِ والمنتأَى مِثْلى
سَقَتْكِ غَوادى المُزْن فى المُنْتأَى الذى يَصِحُّ ويَسْتَمْرى المساكينَ بالوَيْل (٢)

وقد كان ابن عمه الأمير عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى من الذين فروا من الشام خوفاً من المسوَّدة ، وقد مضى إلى الأندلس فولاه عبدالرحمن على إشبيلية ، وكان يقول الشعر ، وقد رووا له أيضاً أبياتاً قالها فى نخلة فريدة رآها بحديقة بإشبيلية فتذكر وطنه وحن إلى أهله ، قال :

يا نَخْلُ أَنتِ فريدةٌ مثلى فى الأَرضِ نائية عنِ الأَهْلِ
تَبْكِى ، وهلْ تَبْكى مُكمَّمَةٌ عجماءُ لم تُجْبَلْ عَلَى جَبْلى
ولو انها عَقِلَتْ إذًا لَبَكَتْ ماءَ الفُراتِ ومَنْبِتَ النَّخْل
لكنَّها حُرِمَتْ وأَخْرجَنِى بُغْضِى بنى العباسِ عَنْ أَهْلى (٣)

(١) المقرى ٢/٧٠٧ و ٧١٦ .
(٢) المقرى ٢/٧١٦ .
(٣) المقرى ٢/٧١٨ .

وهذه الأبيات تنسب أيضاً لعبد الرحمن ، وهى كما ترى تنم عن قوة ورقة كانتا طابع الشعر الأندلسى فى جميع أطواره .

وقد أصبحت قرطبة فى زمن عبد الرحمن ومن عقبه من الأمراء مركز الحركة العلمية والأدبية فى الأندلس ، فتوافد إليها الكثيرون من المشرق يعرضون إنتاجهم وشعرهم . وحدث اتصال أدبى ، شرقى غربى ؛ ولكن قرطبة كانت ترسم خطى بغداد فى نهضتها ، وكان المشرق قبلة الأندلس ، وقد رأينا كيف كان الأندلسيون يعيشون على الثقافة الشرقية فلا يكاد يعرف كتاب فى المشرق حتى يطلب إلى المغرب[1] ، ورأينا كيف كان الأندلسيون يرتحلون إلى المشرق فى طلب العلم والأدب والرواية ثم يعودون فينشرون هذا العلم والأدب فى الأندلس .

وهكذا كان الأدب حتى أواخر الدور الأموى وسقوط الخلافة أدباً وافداً على الأندلس يتذوقه الأندلسيون ويقلدونه ، وكانت خطبهم ورسائلهم لا تختلف كثيراً عن خطب المشرق ورسائله أواخر العصر الأموى وصدر العصر العباسى . ولم يكن هناك جِدَّةٌ فى أشعارهم إلا ماتقتضيه طبيعة إقليمهم من وصف للرياض والبساتين والمنشآت التى استحدثها ملوكهم ، وبقيت أكثر الأغراض الشعرية التقليدية تحتذى نماذج مشرقية ، وكثرت فيما بعد الألقاب التى تشير إلى أن همَّ شعراء الأندلس أن يجاروا الفحول من شعراء المشرق .

زرياب والنهضة الغنائية :

يُستدل من الأخبار التى يرويها المقرى أن عبد الرحمن الداخل قد استقدم إلى الأندلس الجاريات المحسنات للغناء ، منهنَّ فَضْل المدَنِيَّة [2] ، وبذلك يكون أول من شجع رحلة الغناء إلى الأندلس .

---

(١) انظر ص ٦٩ – ٧٣ من هذا الكتاب .

(٢) نشأت وتعلمت ببغداد ثم درجت من هناك إلى المدينة المنورة فارتقى غناؤها ثم اشتريت لعبدالرحمن مع صاحبتها علم المدينة وصواحب غيرها ، وجيء بهن إلى الأندلس فأنزلن بقصر الأمير فى دار تعرف بدار المدنيات نسبة إليهن ، وكان عبد الرحمن يؤثرهن لجودة غنائهن ورقة أدبهن . المقرى ٢/٧٥٨ .

ويُعدُّ زرياب المغنى رأس النهضة الغنائية الأندلسية، وهو أثر من آثار الحضارة الشرقية التى وفدت إلى الأندلس عن طريق من جاءها من المشارقة . وزرياب هذا ظهر فى بغداد وأخذ الغناء عن إسحق الموصلى حتى برع فيه ، وقد رأى إسحق أن يسمع الرشيد غناءه فسمعه وأعجب به وأوصى أن يعتنى بشأنه ، فما كان من إسحق إلا أن لحقته غيرة منه وخاف من منافسته فأوعز إليه أن يترك العراق ، وفى ذلك يقول المقرى :

« فسقط فى يد إسحق وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره فخلا بزرياب وقال يا علىّ إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها ، والدنيا فتانة ، والشركة فى الصناعة عداوة ولا حيلة فى حسمها ، وقد مكرت بى فيما انطويت عليه من إجادتك وعلوّ طبقتك ، وقصدت منفعتك ، فإذا أنا أتيت نفسى من مأمنها بإدنائك ، وعن قليل تسقط منزلتى وترتقى أنت فوقى ، وهذا ما لا أصاحبك عليه ولو أنك ولدى ، ولولا رعيى لذمة تربيتك لما قدّمت شيئاً على أن أُذهب نفسك يكون فى ذلك ما كان ، فتخير فى ثنتين لابد لك منهما : إما أن تذهب عنى فى الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطينى على ذلك الأيْمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفاً إلىّ . فخذ الآن حذرك منى فلست والله أبقى عليك ولا أدع اغتيالك باذلاً فى ذلك بدنى ومالى ، فاقضِ قضاءك . فخرج زرياب لوقته وعلم قدرته على ما قال واختار الفرار قدّامه ، فأعانه إسحق على ذلك سريعاً ، وراش جناحه ، فرحل عنه ومضى يبغى مغرب الشمس »[1] .

ويترك زرياب بغداد ويقصد الأندلس فيصل إليها فى أول إمارة عبد الرحمن الثانى سنة ٢٠٦ هـ/ ٨٢٢ م[2] . فيستقبله الأمير استقبالا فخماً ، وينزله فى قصر من أحسن القصور ، ويكرمه ويقدمه على جميع المغنين .

إن النهضة الغنائية التى أحدثها قدوم زرياب إلى الأندلس دامت طويلا وكان

(١) انظر أخبار زرياب فى نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤٩ – ٧٥٥ .
(٢) انظر ص ١٧ من هذا الكتاب .

لها أثر كبير فى الشعر الأندلسى وفى اختراع الموشحات والزجل . وزرياب هو الذى زاد فى الأندلس على أوتار العود وتراً خامساً وكانت أربعة قبل عهده ، وهو الذى اخترع مضراب العود من قوادم النسر ، وهو الذى سنّ لأهل الأندلس سنناً فى آداب الاجتماع أخذت عنه ونسبت إليه ، فقد روى أنه علم الأندلسيين طريقة جديدة لتصفيف الشعر وترتيبه شاعت عنه ، وعرّفهم ألواناً جديدة من الطعام ، وهو أول من اجتنى بقَفْلة الهليون المسماة بلسانهم الأسفراج ، ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله ، وهو الذى دلهم على فنون جديدة فى الطعام وفى ترتيب المائدة ، وأرشدهم إلى اتخاذ آنية الزجاج الرفيع بدلا من آنية الذهب والفضة ، ونقل إليهم أزياء من اللباس وغير ذلك من الأمور التى تدل على ذوقه المرهف وتعكس أثر الحضارة المشرقية .

وقد استطاع زرياب أن ينقل غناءه إلى أكثر بقاع الأندلس ، بفضل أبنائه وجواريه الذين وفدوا معه وتلقوا على يده صناعته وحفظوها ونشروها وقد كان لهذه النهضة الغنائية فيما بعد أثرها فى موسيقى الغرب أيضاً وفى شعره الغنائى .

وجاء بعد زرياب أبو بكر بن باجة الغرناطى مؤلف الألحان فكان أن ارتقى على يده علم الموسيقى وأتم نهضة زرياب الغنائية .

نحو أدب أندلسى :

هذه النهضة الغنائية التى وفدت من الشرق وتطورت بتأثير الحياة الجديدة ، كانت تجاريها نهضة أدبية استقت أصولها من الشرق ثم أخذت تتطور رويداً رويداً بتأثير الاتصال الذى جرى بين العناصر المختلفة .

وقد رأينا كيف أقبل الإسبانيون على حضارة العرب يغترفون منها ، وعكفوا على اللغة العربية يتدارسونها ولا سيما بقرطبة عاصمة الملك حتى هال أسقفها ألفارو Alvaro هذا الأمر ، فكتب يشكو أنه لا يجد بين الألوف من أبناء طائفته من يستطيع أن يكتب رسالة باللاتينية المقبولة على حين يتقن الكثيرون العربية وينظمون الأشعار فيها بمهارة لا تقاربها مهارة العرب أنفسهم[1] ، ولا شك فى أن التساهل

(١) انظر ص ٥٩ من هذا الكتاب .

الذى أبداه العرب والرُّواء الذى كان لحضارتهم قد مهدا السبيل لهذا الاتصال الذى بدت آثاره جلية فى الإنتاج الأدبى الذى جاء يحمل طابع الشرق والأندلس معاً .

ويمكننا أن نقول إن الأدب العربى فى الأندلس ، وقد بلغ أوج ذروته فى حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم والحاجب المنصور ، لم يستطع أن يتخلى عن أثر المشرق . وعندما جاء عهد ملوك الطوائف كانت الموشحات أظهر طابع امتاز به أدب الأندلس الذى صدر عن خصائص الحياة الجديدة .

طائفة من الأُدباء

وقد نبغ فى بلاد الأندلس شعراء استطاعوا أحياناً أن يجاروا الفحول من شعراء المشرق فى بعض الأغراض وإن كانوا قد قصروا فى أغراض أخرى ولم يسطيعوا أن يتفوقوا عليهم . ولابد لنا هنا من استعراض بعض الأسماء اللامعة على سبيل الذكر لا على سبيل الحصر .

بعض أدباء فترة مجد الدولة الأموية :

ابن عبد ربه (٢٤٦ — ٣٢٨ هـ)

يأتى ابن عبد ربه فى طليعة هذه الأسماء ، فقد ولد هذا الأديب الشاعر فى قرطبة سنة ٢٤٦ هـ ونشأ فيها ميالا إلى العلم والأدب . ونال من أمراء بنى أمية بالأندلس دنيا عريضة وحلّ عندهم فى المكان الأسمى . وقد برع فى الفقه والتاريخ ودرس علوم العربية وأتقن الشعر والكتابة ، ويروى أنه كان فى صباه لاهياً مولعاً بالغناء ونظم فى ذلك القصائد والمقطعات الرقيقة الجميلة ، ثم أقلع فى كبره عن صبوته وأخلص لله فى توبته ، ففعل مثل أبى نواس وغيره ، وأنشأ القصائد الزهدية على أوزان شعره الغزلى وقوافيه وسماها « الممحّصات » ليمحّص الله عنه ذنوب شبابه ، أى يطهره منها . وقد أصيب فى نهاية عمره بالفالج ومات بقرطبة سنة ٣٢٨ هـ .

وابن عبد ربه من الشعراء المعدودين زمن الخلافة فى الأندلس ، وقد عارض

بعض شعراء المشرق . وشعره غزير ولكن أكثره فُقد . ولم ينقل إلينا سوى ما دوّنه الثعالبي فى يتيمة الدهر .

وله فى النثر كتابه الشهير المعروف بـ « العقد الفريد » نافس به المشارقة فى فن التأليف الأدبى . ولهذا الكتاب مزية هامة هى جمعه لكثير من الرسائل والخطب والقصص والفوائد التاريخية التى بادت الأصول المأخوذة هى عنها وبقيت فيه مخلّدة . وقد قصره المؤلف على أخبار المشارقة ، ولعل السبب فى ذلك أن الشرق فى نظر الأندلسيين موطن اللغة والأدب ، تحتل مؤلفاته المكان الأسمى ، وإليه تتجه الأنظار . ويروى أنه ، لما وقع الكتاب فى يد الصاحب ابن عباد ، أقبل عليه ينشد فيه أخبار أهل المغرب . ولما لم يجد فيه شيئاً جديداً ، تركه آسفاً وقال جملته المشهورة : « هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا » .

وابن عبد ربه أولع حقّاً بمحاكاة أهل المشرق ولم تظهر عليه النزعة التجديدية ، وهى بعد ضئيلة ضعيفة فى بلاده . فكان شعره متيناً محكماً ولكن لم تظهر عليه آثار التجديد .

والمهم فى شأن ابن عبد ربه أن ابن بسام صاحب الذخيرة والصلاح الكتبى مؤلف فوات الوفيات وابن خلدون ينسبون إليه فى رواية يتناقلونها أنه أول من سبق إلى نظم الموشحات . وهذا زعم خاطئ سنجليه عند الكلام عن الموشحات ، فالظاهر أن فن الموشح قد تأخر عن زمن ابن عبد ربه قليلا ولم يكن لصاحب العقد أثر فيه كما سنبين ذلك .

ابن هانئ (٣٢٦ – ٣٦٣ هـ)

ومن الأسماء المشرقة فى سماء الشعر الأندلسى ابن هانئ . فقد ولد بإشبيلية ونشأ بها واتصل بصاحبها ، وكانت الأندلس إذ ذاك فى عصرها الذهبى زمن عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم . واشتهر ابن هانئ بالآراء الفلسفية وباللهو والمجون ، فحمل الفقهاء والشعب عليه واضطر صاحب إشبيلية إلى نصحه بالابتعاد عن هذه المدينة زمناً فسافر إلى المغرب وسِنُّه ست وعشرون سنة . واتصل بجوهر الصقلى قائد المعز ثم بالمعز نفسه فمدحه وعلت منزلته عند الخليفة الفاطمى فجعله

شاعره الخاص . ثم سار المعز لفتح مصر ففتحها وأراد ابن هانئ اللحاق به فمات ببرقة فى طريقه إليه . وتأسّف المعز عليه وقال عندما بلغه خبر وفاته : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » . وقد قال فيه ابن خلكان إنه عند المغاربة كالمتنبي عند المشارقة وليس فى المغاربة من هو فى طبقته لا مِنْ متقدميهم و لامن متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق . وهو صاحب القصيدة المشهورة :

تقولُ بنو العباس هلْ فُتحتْ مِصْرُ ... فقلْ لبنى العباسِ قدقُضِىَ الأَمْرُ
وقد جاوَزَ الإسكندريةَ جَوْهَرٌ ... تُطَالِعُهُ البُشْرَى وَيَقْدُمُهُ النَّصرُ

وله قصيدة يمدح بها المعز ويصف أسطوله وصفاً دقيقاً فيقول فيها :

أَمَاوالجوَارِى المُنْشآتِ التى سَرَتْ ... لقد ظَاهَرَتْها عُدَّةٌ وَعَدِيدُ
قِبابٌ كماتُزْجَى القِبابُ على المهَا ... ولكنَّ مَنْ ضُمَّتْ عليه أُسُودُ
ولله مما لا يَرَوْن كَتائبٌ ... مُسَوَّمَةٌ تَحْدُو بها وجُنودُ
أَطاعَ لها أَنَّ الملائكَ خَلْفَها ... كماوقفتْ خلفَ الصُّفُوف رُدُودُ
وأَن الرياحَ الذاريات كتائبٌ ... وأَنَّ النجوم الطالعاتِ سُعُودُ
وما راعَ مَلْكَ الروم إلااطِّلاَعُها ... تَنَشَّرُ أَعلامٌ لها وَبُنُودُ
عليها غَمَامٌ مُكْفَهِرٌّ صَبِيرُهُ ... لهُ بارِقاتٌ جَمَّةٌ وَرُعُودُ[1]
مَواخِرُ فى طَامى العُبابِ كأَنَّها ... لِعَزْمِكَ بأْسٌ أَو لِكَفِّكَ جُودُ
إذا زَفَرَتْ غيظاً تَرَامَتْ بِمَارِجٍ ... كماشَبَّ مِنْ نارِالجَحِيمِ وَقُودُ[2]

(١) الصبير : السحاب المتراكم .
(٢) المارج : الشعلة شديدة اللهب .

فَأَفْواهُهُنَّ الحَامِياتُ صَوَاعِقٌ وأَنفاسُهنَّ الزَّافراتُ حَدِيدُ
لها شُعَلٌ فَوْقَ الغِمارِ كأَنها دِمَاءٌ تَلَقَّتْها مَلاَحِفُ سُودُ
تُعانِقُ مَوْجَ البحر حتى كَأَنه سَلِيطٌ. لها فيه الذُّبالُ عَتِيدُ[1]
فليسَ لها إلا الرياحَ أَعنةٌ وليس لها إلا الحبابَ كَدِيدُ[2]

ونلاحظ فى هذا الوصف الضخامة فى الألفاظ إلى جانب الصور البصرية . ولقد قادت هذه الفخامة وهذا الحبُّ للمبالغة فى المدح والوصف وهذه الحِكم المتفرقةُ فى شعره — قادت المغاربة إلى تشبيهه بالمتنبى . إلا أن بعض النقاد كانوا يرون أن ألفاظه طنانة لا معانى كبيرة تحتها ، وإلى هذا أشار أبو العلاء عندما قال : « ما أشبهه إلا برَحى تطحن قروناً ». غير أن ابن خلكان يرى أن تعصُّب المعرى للمتنبى هو الذى دفعه إلى هذا القول ، ومهما يكن من أمر فالفرق بين الشاعرين شاسع جداً ، فلم تكن لابن هانئ عبقرية المتنبى ولم يكن لديه المعين النفسى والفلسفى الذى اغترف منه أبو الطيب .

وديوان ابن هانئ مرتب حسب حروف الهجاء طبع فى مصر سنة ١٢٧٤ هـ وفى بيروت سنة ١٨٨٤ م .

أحمد بن دراج القسطلى (٣٤٧ — ٤٢١ هـ)

وقد عرف من شعراء الدولة العامرية فى قرطبة ابن دَرّاج القسطلى[3] وكان كاتب المنصور بن أبى عامر وشاعره ، وهو معدود من الفحول وقد شارك ابن هانئ فى لقب متنبى المغرب ، ولابن دراج رسائل وفصول فى النثر لا تختلف كثيراً عن الرسائل والفصول التى وضعت فى العصر العباسى ، وله شعر أبلغ من نثره وقد أجرى الثعالبى ذكره فى يتيمته وهو صاحب الدالية المشهورة فى سليمان بن الحكم :

---

(١) السليط : الزيت . الذبال : فتيل السراج . عتيد : قوى متين .
(٢) الكديد : الأرض الصلبة .
(٣) راجع بعض نثره وشعره فى الذخيرة لابن بسام ، القسم الأول المجلد الأول ص ٤٣ — ٧٨ .

شَهِدَتْ لكَ الأَيامُ أَنكَ عِيدُها لَكَ حَنَّ مُوحِشُها وآبَ بَعِيدُها

وله رائية فى المنصور بن أبى عامر نقرأ فيها هذه الأبيات الجميلة التى يصف فيها وداعه لزوجه ويذكر ابنه الصغير الذى خلفه وراءه :

ولمَّا تَدَانَتْ للوَداع وقدْ هَفَا بِصَبْرِىَ منها أَنَّةٌ وَزَفِيرُ
تُناشِدُنى عهدَ المودَّةِ والهَوَى وفى المَهْدِ مَبْغُومُ النِّداءِ صَغِيرُ
عَيِىٌّ بَمرْجُوع الخِطَابِ وَلَفْظُه بِمَوْقِع أَهْواءِ النُّفُوسِ خَبِيرُ
تَبَوَّأَ ممنوعَ القلوبِ وَمَهَّدَتْ لهُ أَذْرُعٌ مَحْفُوفَةٌ ونُحُورُ
عَصَيْتُ شَفِيعَ النفسِ فيه وَقَادَنى رَوَاحٌ بِتَدْآبِ السُّرَى وَبُكُورُ
وَطَار جَناحُ البَيْنِ بِى وَهَفَتْ بها جَوَانِحُ مِنْ ذُعْرِ الفِراقِ تَطِيرُ

* * *

وعرف أيضاً فى هذه الفترة الشاعرُ الرّمادى ، أبو عمر يوسف بن هارون وهو شاعر قرطبى مجيد عاصر المتنبى وتوفى سنة ٤٠٣ هـ كما ذكرنا[1] . ويقول المقرى إنه مشهور عند الخاصة والعامة لسلوكه فى فنون من المنظوم والمنثور مسالك ، حتى كان كثير من شيوخ الأدب فى وقته يقولون: فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة ، يعنون امرأ القيس والمتنبى ويوسف بن هرون .

وعرف أيضاً أبو عامر بن شُهَيْد من شعراء الدولة العامرية وكان وزير الناصر . ولد سنة ٣٨٢ هـ وتوفى بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ ، وله رسالة سماها « التوابع والزوابع »[2] وهى تشبه « رسالة الغفران » للمعرى فى خيالها وأسلوبها . ومحور موضوعها أن الشاعر رافق إلى أرض الجن سميراً له أسماه زهير بن نمير وتنقل بين الأدباء والشعراء القدماء

---

(١) انظر ص ١٥ من هذا الكتاب ، الحاشية رقم (١) .
(٢) التوابع : ج تابع وتابعة : الجنى . والزوابع : ج زوبعة وهى الشيطان أو رئيس الجن .

ورواتهم فكان يطارحهم الشعر ويستمع إلى أخبارهم وتجرى بينه وبينهم مساجلات ومناظرات . وقد تفنن ابن شهيد فى عرض هذه الأخبار بصورة تدعو إلى الإعجاب . وهذه الرسالة جديرة بالاهتمام ، وقد نشرها حديثاً فى بيروت بطرس البستانى معتمداً على ما جاء منها فى الذخيرة[١].

بعض شعراء ملوك الطوائف :

فى هذا الدور أيضاً أسماء لامعة فى الشعر والأدب نشير إلى أهمها . وقد رأينا أن ظهور ملوك الطوائف لم يكن حداً فاصلا لرواج الأدب وازدهاره ، بل . على العكس ، كان عهداً لاقى فيه الأدباء والشعراء كل رعاية وعطف . ويبدو لنا أن بنى عبّاد هم أولى ملوك الطوائف بانتباهنا ، فقد كانوا هم أنفسهم شعراء كما ذكرنا ، وكان بلاطهم منتدى الأدب فى عصرهم ، فهذا المعتضد يجعل يوماً من أيام الأسبوع — الاثنين — للشعراء يفدون به عليه فيطارحهم الشعر ويستمع إليهم ويجيز السابق بينهم ويشحذ هممهم للنظم . وجاء المعتمد فبزّ أباه فى هذا المضمار حتى أصبح بلاطهم مركز الحركة الأدبية فى الأندلس كما رأينا .

ومما يحكى عن المعتمد أنه أول ما تعرف إلى امرأته « اعتماد » الشهيرة بالرُّميكيّة كان عن طريق الأدب ، فقد زعموا — كما يقول المقرى — أن المعتمد ركب فى النهر ومعه ابن عمار وزيره ، وقد زَردت الريح النهر . فقال ابن عباد لابن عمار : أجز :

صَنَعَ الرِّيحُ من الماءِ زَرَدْ

فأطال ابن عمار الفكرة ، فقالت امرأة من الغسالات :

أَىُّ دِرْعٍ لِقِتَالٍ لَوْ جَمَدْ

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به ، مع عجز ابن عمار ، ونظر إليها فإذا هى صورة حسنة ، فأعجبته فسألها : أذات زوج هى ؟ فقالت : لا ، فتزوجها ، وولدت له أولاده الملوك النجباء [٢].

---

(١) انظر ص ٧٣ من هذا الكتاب ، الحاشية رقم ٣ . (٢) المقرى ، ٢/١١٠٠-١١٠١ .

ومن أخبار الرميكية القصة المشهورة فى قولها « ولا يوم الطين » وذلك أنها رأت الناس يمشون فى الطين ، فاشتهت المشى فيه ، فأمر المعتمد ، فسحقت أشياءُ من الطيب، وذُرّت فى ساحة القصر حتى عمته ثم نصبت الغرابيل، وصُب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب ، وعجنت بالأيدى حتى عادت كالطين ، وخاضتها مع جواريها . وغاضبها فى بعض الأيام فأقسمت أنها لم تر منه خيراً قط ، فقال : ولا يوم الطين ؟ فاستحيت واعتذرت . ويتابع المقرى الخبر قائلا : وهذا مصداق قول نبينا صلى الله عليه وسلم فى حق النساء: « لو أحسنت إلى إحداهن الدهرَ كله ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط » .

ولعل المعتمد يشير إلى هذه الحادثة فى أبياته الرائية حيث قال فى بناته :

يطأْنَ فى الطينِ والأَقدامُ حافيةٌ كأَنَّها لم تطأْ مِسْكاً وَكافورا

فقد دخلت على المعتمد بناته وهو فى سجنه بأغمات ، بعدما حلت به المصيبة ، دخلن عليه وهن فى أطمارهن البالية ، يغالبن البكاء ويصارعن الذل ليرددن على مسامع أبيهن كلمات التهنئة بأول عيد يمر عليهن فى السجن ، فإذا بالأب الملك يحتضن بناته وينشد هذه الأبيات [1]:

فيامَضَى كنتَ بالأَعياد مسرورا فساءَك العيدُ فى أَغماتَ مَأْسورا
ترى بناتِكَ فى الأَطمارِ جائعةً يغزلنَ للناس مايملِكْنَ قِطْمِيرا
برزْنَ نحوَكَ للتسليمِ خاشعةً أَبصارهنَّ حَسِيراتٍ مَكاسيرا
يطأْنَ فى الطينِ والأَقدامُ حافيةٌ كأَنها لم تطأْ مِسْكاً وكافورا
لاَخَدَّ إلا تَشَكَّى الجَدْبَ ظَاهِرُه وليس إلا مع الأَنفاسِ مَمْطُورا

(١) انظر ديوان المعتمد ص ١٠٠ ، وقد جمعه أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ، القاهرة ١٩٥١ .

أَفْطَرْتَ فى العيد لاعادتْ مساءتُهُ فكان فِطْرُكَ للأَكباد تَفْطيرا
قد كان دَهْرُكَ إِنْ تأْمرْهُ ممتثلاً فردَّكَ الدَّهرُ مَنْهِيًّا وَمَأْمُورا
مَنْ باتَ بَعْدَكَ فى مُلْك يُسَرُّ بِهِ فإنما باتَ بالأَحلام مَغْرُورا

وهكذا نرى أن المعتمد بن عباد من الملوك الشعراء دام ملكه ثلاثاً وعشرين سنة (٤٦٢ – ٤٨٤) وكان – كما قلنا – قد نكب فى آخر حياته بملكه ونفسه وأبنائه ونفى إلى أغمات فى أفريقية وسجن وقيد بالقيود بعد مجده وعزه فى قصره الزاهى بإشبيلية فأخذ يتسلى عن حظه بنظم الأشعار من جور الزمان بعد أن كانت أشعاره تدور على اللهو ومجالس الأنس . ومن أمثلة شعره الذى يصور حياة الترف والجلال التى عاشها قوله[1] :

ولقد شربتُ الراحَ يسطعُ نُورها والليلُ قد مدَّ الظلامَ رداءَ
حتى تبدَّى البدرُ فى جَوْزائه مَلِكاً تَنَاهَى بهجةً وبَهاءَ
لمَّا أَرادَ تَنَزُّهاً فى غَرْبِهِ جَعَل المِظلَّةَ فوقَه الجَوْزاءَ
وتَنَاهَضَتْ زُهْرُ النُّجوم يَحُفُّهُ لَأْلاؤُها فاستكْمَلَ الآلاءَ
وَتَرَى الكَواكبَ كالمواكبِ حولَه رُفعتْ ثُرَيَّاها عليهِ لِوَاءَ
وحكيتُهُ فى الأَرضِ بين مواكب وكَواعبٍ ، جمعت سَنًا وسَنَاءَ[2]
إن نَشَّرتْ تلك[3] الدروعَ حناديساً ملأَت لنا هذى[4] الكئوسَ ضياءَ
وإذا تغنَّتْ هذه فى مِزْهرٍ[5] لم تألُ تلك عن التَّريك[6] غناءَ

(١) ديوان المعتمد ص ٢٨ . (٢) السنا بالقصر : الضوء . وبالمد : المجد والرفعة .
(٣) تلك : فاعل نشرت ، والإشارة إلى المواكب . والدروع مفعول به .
(٤) هذى : إشارة إلى الكواعب وهى فاعل ملأت . والكؤوس مفعول به .
(٥) المزهر : العود الذى يضرب به .
(٦) التريك كما فى اللسان (ترك) : بيضة الحديد للرأس والجمع ترائك وتريك .

أما أشعاره الشاكية التى قالها فى محنته فنجد فيها لوناً خاصًّا من الأدب ، فيه من الرقة والعاطفة ما يجعلنا نشعر أنها أشعار عزيز ذل . وكانت هذه الأشعار سلوى المعتمد فى أسره ، بها يندب حظه ، ويحدث بآلامه ، ويبكى مصيره ومصير ملكه :

اقنعْ بحظِّكَ فى دُنْياك ما كانَا ... وَعزِّ نَفْسَكَ إن فارقتَ أَوطَانَا
فى الله من كل مفقودٍ مضى عِوَضٌ ... فأَشْعِرِ القلبَ سُلوانًا وإيمانًا
أَكلما سنَحت ذكرى طربتَ لها ... مَجَّت دموعُك فى خَدَّيك طوفانا
أَمَا سمعتَ بسلطانٍ شَبيهك قد ... بَزَّتْه سُودُ خُطوبِ الدهر سُلطانا
وَطِّنْ على الكُره ،وارقُب إثْرَهُ فَرَجًا ... واستغنم الله تغنمْ منه غُفرانا![1]

وفى مكان آخر من ديوانه يقول :

أَنباءُ أَسرِك قد طَبَّقْنَ آفاقاً ... بل قد عَمَمْن جهاتِ الأَرض إقلاقا
سَرَتْ من الغرب لا يُطوى لها قدمٌ ... حتى أَتت شَرقها تنعاكَ إشراقا
فأَحرقَ الفجعُ أَكبادًا وأَفئدةً ... وأَغرقَ الدمعُ آماقاً وأَحداقا
قد ضاقَ صدرُ المعالى إذ نُعيتَ لها ... وقيل: إن عليكَ القيدَ قد ضاقا
أَنَّى غلبت ، وكنت الدَّهر ذا غَلَبٍ ... للغالبين ، وللسُّبَّاق سَبَّاقا

---

(١) ديوان المعتمد ص ١١٤ .

قلتُ :الخطوبُ أَذلَّتنى طوارقُها وكان عَزمِىَ للأَعداءِ طَرَّاقا
متى رأَيتَ صُروفَ الدهرِ تاركةً إذا انْبَرتْ لذوى الأَخطار أَرماقا[1]

وهكذا نرى أن أسر المتعمد أثار كوامن عواطفه كما أثار فى نفوس الشعراء عواطفهم تألماً وحسرة عليه . فهذا الشاعر الدانى يشهد تلك الساعات الفاصلة فى تاريخ دولة بنى عباد عندما تتقدم جنود ابن تاشفين لتضع القيد فى يد ملك إشبيلية ولتحمله السفن هو وآله ، وتسير بهم فى الوادى الكبير ، فى طريقهم إلى أغمات ، على حين يحتشد الناس على ضفتى النهر يودعون ملكهم وأهله ويذرفون على أيامه سخين الدموع . هذه المشاهد المبكية والخطوب المؤلمة هى التى حركت فى نفس الشاعر الدانى لواعج الحزن والأسى فإذا به يرثى ملكه بداليته المشهورة :

تبكِى السماءُ بدمع رائحٍ غادى على البهاليلِ من أَبناءِ عبَّاد

وفيها يقول :

نسيتُ إلا غَداة النهر كونَهم فى المنشآت كأَمواتٍ بأَلحاد
والناسُ قد ملأُوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافياتٍ فوق أَزباد
حُطَّ القناع فلم تُستر مُخَدَّرةٌ ومُزِّقت أَوجهٌ تمزيقَ أَبراد
حان الوَداع فضجَّت كلُّ صارخة وصارخ من مُفدَّاةٍ ومن فَادى
سارت سفائنهم والنوحُ يتبعُها كأَنها إبلٌ يحدو بها الحَادى
كم سال فى الماء من دمعٍ وكم حملت تلك القطائع من قِطْعات أَكباد

ويتفجر الشعر رثاء عليه من كل حدب وصوب ، فإذا بالوزير ابن عبدون[2] يقول فيه رائيته الشهيرة التى مطلعها :

---

(١) ديوان المعتمد ص ١١٠ .
(٢) هو وزير بنى الأفطس فى بطليوس وشاعرهم توفى سنة ٥٢٠ هـ .

الدهرُ يفجع بعدَ العين بالأَثر فما البكاءُ على الأَشباح والصُّوَرِ

وإذا بشاعره أبى بحر بن عبد الصمد يمضى إلى قبره بعد صلاة العيد مع ملأ من الناس ويخر باكياً معفراً وجهه فى تراب جدثه وهو ينشد :

مَلِكَ الملوكِ أَسامعٌ فأُنادِى أَم قد عَدَتْكَ عن السماع عَوَادى
لما خَلَت منك القصورُ فلم تكن فيها كما قد كنتَ فى الأَعياد
قَبَّلتُ فى هذا الثرى لكَ خاضعاً وتَخِذْتُ قبرَكَ موضعَ الإنشاد

وابن عبد الصمد هذا مع الشاعر الدانى والشاعر ابن حمديس هم ثلاثة من شعرائه الذين وفوا له ورحلوا إليه بعد ذله وسجنه . وهناك عدد من الشعراء الذين عاصروا المعتمد وقالوا فيه الشعر نجد أخبارهم فى النفح والقلائد وغيرهما من كتب الأدب .

النساء الشاعرات (١) :

إذا كانت الشاعرات قد شاركن الشعراء فى نظم الشعر كما ذكرنا ، فيمكننا أن نقول إن هذه الظاهرة قد بدت مع ظهور ملوك الطوائف . فى زمنهم أخذ الشعر يتسرب إلى دور الحريم فى القصور وأخذت النساء من بنات الملوك والأمراء والجوارى على اختلاف طبقاتهن ، يفقهن هذا اللون من الأدب ويحسنّ نظمه .

وقد أورد المقرى شعراً لطائفة كبيرة من الحرائر والجوارى . وأكثرهن عرفن فى عهد ملوك الطوائف ، نذكر منهن : أم السعد بنت عصام الحميرى ، وحسانة التميمية ، وأم العلاء بنت يوسف الحجازية ، وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح وجاريته غاية المنى ، والشاعرة الغسانية البجانية نسبة إلى بجانة ، والعروضية مولاة

---

(١) انظر المقرى ، نفح الطيب ٢/١٠٧٦ – ١١٤٦ (وانظر أيضاً طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد لكتاب نفح الطيب ج ٥ ص ٢٩٩ وما بعدها و ج ٦ ص ١٩ وما بعدها) .
فى الأدب الأندلسى

أبى المطرف عبد الرحمن بن غلبون الكاتب ، وحفصة بنت حمدون الحجازية ، ونزهون الغرناطية ، وحفصة الركونية ، والعبادية جارية المعتضد ، واعتماد زوج المعتمد الشهيرة بالرميكية السابقة الذكر ، وبثينة بنت المعتمد ، وحمدة بنت زياد المؤدب ، وولادة بنت المستكفى ، ومهجة القرطبية جاريتها ، وغيرهن . وقد مرت أسماء بعضهن فى أثناء الكلام على شغف الأندلسيين بالشعر [1] ، ولا يتسع المجال هنا لذكر نبذ من أشعارهن ، وسنعود إلى الكلام على ولادة عندما نتحدث عن ابن زيدون الذى سنفرد له باباً خاصًّا ، ونكتفى فى هذا المقام بذكر أبيات من شعر حمدة .

حمدة ، ويقال لها حمدونة ، بنت زياد المؤدب من وادى آش ، هى شاعرة الأندلس ، ولقبت بخنساء المغرب على الرغم من أن شعرها ليس فى الرثاء بل فى الغزل . ومن جميل ما قالت هذه الأبيات :

ولما أَبى الواشون إلا فِراقنا ومالَهُم عندى وعندك من ثارِ
وشنُّوا على أَسماعنا كلَّ غارة وقلَّ حُماتى عند ذاك وأَنصارى
غزوتُهم من مقلتيكَ وأَدمعى ومن نَفَسى بالسيف والسَّيْل والنار

وخرجت حمدة مرة للوادى مع صبية ، فلما نضت عنها ثيابها وعامت قالت :

أَباح الدمعُ أَسرارى بوادى له للحسن آثارٌ بَوادى
فمن نهرٍ يطوفُ بكل روضٍ ومن روض يرفُّ بكل وادى
ومن بين الظباء مهاةُ أُنس سبت لبى وقد ملكت فؤادى
لها لحظ ترقِّده لأَمرٍ وذاك الأَمرُ يمنعنى رُقادى

(١) انظر ص ٦٣ من هذا الكتاب .

إذا سَدَلتْ ذوائبها عليها رأَيت البدرَ فى أُفق السواد
كأَن الصبح مات له شقيق فمن حُزْنٍ تَسَربل بالحداد

وهناك رواية تقول إن هذه الأبيات لحمدة العوفية . وقد نسب الأندلسيون إلى حمدة بنت زياد المؤدب الأبيات الجميلة الآتية الشهيرة فى بلاد المشرق وهى :

وقانا لفحةَ الرمضاءِ وادٍ سقاهُ مُضاعَف الغيثِ العميم
حللنا دوحَه فحَنَا علينا حُنُوَّ المُرْضِعات على الفَطيم
وأَرْشَفَنا على ظَمأٍ زُلالاً أَلذَّ من المُدامة للنديم
يصدُّ الشمسَ أَنَّى واجهتنا فيحجبها ويأْذنُ للنسيم
يَرُوع حصاهُ حاليةَ العذارى فتلمسُ جانِبَ العِقد النظيم

ويرى بعض المؤرخين ، ومنهم ابن النديم ، أن قائل هذه الأبيات هو الشاعر المنازى ، إلا أن أبا جعفر الأندلسى الغرناطى ، نزيل حلب ، يدفع ذلك فيقول : « . . . وقد تلبس بعضهم أيضاً بشعارها ، وادعى غير هذا من أشعارها ، وهو قولها ، وقانا لفحة الرمضاء ، وأن هذه الأبيات نسبها أهل البلاد (أى بلاد المشرق) للمنازى من شعرائهم ، وركبوا التعصب فى جادة ادعائهم ، وهى أبيات لم يحلها غيرُ لسانها ، ولا رَقَمَ برديها غير إحسانها . ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا ، وهى الأندلس ، أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازى إلى الوجود ، ويتصف بلفظة الموجود »[1].

---

(١) المقرى ، ج ٢ ص ١١٤٢ – ١١٤٣ (ومن طبعة محمد محى الدين عبد الحميد ج ٦ ص ٢٤).

ابن حمديس (٤٤٧ – ٥٢٧ هـ) :

ومن بين الشعراء النابهين فى دور الطوائف ابن حمديس . ولد أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن حمديس الأزدى الصقلى فى جزيرة صقلية عام ٤٤٧ هـ فى آخر حكم العرب لهذه الجزيرة [١]. وقد امتازت صقلية بطبيعتها الغنية وودیانها الخصبة وأنهارها الجارية ، وأثارت فى نفوس سكانها منذ القديم التغنى بحياتها الريفية .

وقد عالج ابن حمديس نظم الشعر وهو صغير ولكنه بقى خامل الذكر . ولما كان فى ميعة الشباب استولى النورمانديون على وطنه صقلية وشاهد ما حل ببلده من الخراب وبقومه من العذاب فأذكى ذلك ، فيما يبدو ، من شاعريته ولكنه ظل دائم الانقباض كثير التشاؤم رقيق الشعور .

وبعد أن حلت النكبة بوطنه رحل إلى الأندلس سنة ٤٧١ هـ ولاذ بكنف المعتمد ابن عباد بإشبيلية وأصبح شاعره . ولما استولى ابن تاشفين على إشبيلية ونفى ابن عباد منها إلى قلعة أغمات بمراكش لحق ابن حمديس سيده إلى منفاه وبقى وفيا له ينظم الشعر الحزين . ولما توفى ابن عباد سار ابن حمديس إلى قرية المهدية الإفريقية وبقى فيها حقبة من الدهر ، ثم انتقل إلى ميورقة ، وهى جزيرة صغيرة شرقى الأندلس . فمات بها أعمى بائساً سنة ٥٢٧ هـ . ولابن حمديس ديوان شعر طبع فى بالرم سنة ١٨٨٣ م . وفى روما سنة ١٨٩٧ م وفى بيروت سنة ١٩٦٠ م

كان لنشأة ابن حمديس فى جزيرة صقلية ذات الطبيعة الوارفة الظلال أثر فى ظهور فن الوصف فى شعره وعنايته به ، إلا أن الفترة المضطربة التى عاشها الشاعر فى أواخر حكم العرب للجزيرة ، وسط بيئة أعجمية وفتن متصلة ، لم تسمح له بالاستمتاع التام بهذه البيئة وحسن التعبير عن جمالها . ولما رحل إلى الأندلس وإلى المغرب اتصل بالنزعات الأدبية فى تلك البلاد وشارك فيها وعبر عنها ، وكان فى تعبيره هذا يمثل الطور الثالث للشعر الأندلسى الذى أخذ يصور البيئة وما فيها

---

(١) حكم العرب جزيرة صقلية بين عامى ٢١٩ – ٤٦٤ هـ .

من حداثة وجدة كما يعبر عن نزعات سابقيه من القدماء والمحدثين[١] .

ونشأة الشاعر ذى الأصل العربى فى موطن أعجمى يحارب العروبة ، ثم انتقاله إلى أرض الأندلس ومصاحبته العرب فيها وفى قفار المغرب ، أدى به إلى ازدياد تعلقه بالعرب وبيئتهم وما يتصل بهم من ألوان التفكير والأساليب ، ولذا أكثر من مدحهم والفخر بهم ووصف حياتهم .

وأول ظاهرة لوصف هذه الحياة تبدو فى تغنيه بالطبيعة البدوية . فقد وصفها وبالغ فى الوقوف على الأطلال محتذياً فى ذلك معانى القدماء والمحدثين .

وقد أوضح الدكتور سيد نوفل أن الجمع بين معانى القدماء والمحدثين يبدو على أتمه حين يتحدث عن الأطلال حديثاً مؤثراً ، ثم يتبع مذهب أبى نواس فى السخرية منها والهتاف بالخمر فى ظل الطبيعة الوارف . وينطبق هذا كذلك على أوصافه الأخرى للخيل والإبل والغيث والبرق والبيداء والصيد .

ويتابع الدكتور نوفل كلامه قائلا : إن وصف الطبيعة عند ابن حمديس وثيق الصلة بوصف الخمر ، والطبيعة بمختلف مظاهرها مسرح للشرب واللهو وهى بجمالها تقود إلى الخمر ، والخمر توضح جمال الطبيعة . . وما علينا إلا أن نقرأ ديوانه لنراه يشرب عند طلوع الفجر فى روضة فواحة الزهر مخضلّة ، ويشرب قبل أن ترتشف الشمس ريق الغوادى من ثغور الأقاح ، ويشرب عند المغيب والشمس تلبس من الغيم نقاباً ، ويشرب على إيماض برق كأنه نور مصباح شب فى سواد الليل[٢] .

---

(١) نلاحظ أن الشعر الأندلسى ، بوجه عام ، قد مر بأطوار ثلاثة : الطور الأول ، وهو يمثل شعر التقليد لأدب المشرق ، ويبدأ منذ فجر عصر الأمويين فى الأندلس حتى القرن الخامس الهجرى ، ومن شعرائه ابن عبد ربه وابن هانئ وابن شهيد وابن دراج القسطلى وغيرهم . والطور الثانى ، وهو الحقبة التى امتدت خلال القرن الخامس ، وفيها أخذ الشعراء يصدرون عن خاصرهم ، يمثلون بيئتهم ومظاهرها النفس ومشاعرها مع الأخذ بحظ من التقليد ، ويمثل هذا الطور ابن زيدون وابن عمار والمعتمد بن عباد والأعمى التطيلى ومن إليهم من شعراء ملوك الطوائف الذين يجمعون طرافة البيئة إلى معانى الشعراء السابقين ، وفى نهاية هذا القرن تم انتصار الجديد واتسعت حركة الموشحات . أما الطور الثالث فيضم شعراء القرن السادس وما بعده وفيه أخذ الشعراء يمثلون البيئة وتجتمع لهم الحداثة والجدة ويمثل هذا الطور من الشعراء ابن حمديس وابن عبدون وابن خفاجة وابن سهل ولسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم .

(٢) « شعر الطبيعة فى الأدب العربى » ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

وهكذا ينتهى الدكتور نوفل إلى أن ابن حمديس قد لاحق الطبيعة بالخمر فى جميع الأوقات والأحوال الطبيعية وأبان عن فتنة الطبيعة فى مظاهرها المختلفة . فلها من مظاهر الحسن فى كل آن ما يغرى بها وما يدنع إلى الطرب لمرآها .

وفى الأبيات الآتية التى نقتطفها من إحدى خمرياته يمثل الشاعر مختلف مظاهر الطبيعة الجميلة فى جو من الخمر ، فيقول :

طَرَقَتْ والليلُ محدودُ الجَناحْ مرحباً بالشمس فى غيرِ صباحْ
غادةٌ تحمل فى أجفانها سَقَماً فيه مَنِيَّاتُ الصِّحاحْ

* * *

فاسْقِنِي عن إذنِ سُلْطانِ الهَوَى ليس يشفى الروحَ إلا كأْسُ راحْ
وانتظر للحِلْم بعدى كَرَّةً كم فسادٍ كان عُقباه صلاحْ
فالقضيبُ اهتزَّ والبدرُ بَدَا والكثيبُ ارتجَّ والعنبرُ فاحْ
والثُّريا رَجَحَ الجوُّ بها كابن ماءٍ ضَمَّ للوَكْر جَناحْ
وكأَن الغرب منها ناشقٌ باقةً من ياسمينٍ أو أَقَاحْ
وكأَن الصبحَ ذا الأَنوارِ من ظُلَم الليلِ على الظلماءِ لاحْ
فاشربِ الراحَ ولا تُخْلِ يدًا من يدِ اللهو غُدوًّا ورَوَاحْ
فى حديقٍ غَرَسَ الغيثُ به عَبِقَ الأَرواح موشىَّ البِطَاحْ
تَعقِل الطرفَ أَزاهيرٌ به ثم تُعطيه أَزاهيرَ صُراحْ

أَرضعَ الغيمُ لِباناً بانَهُ فتربَّت فيه قَامَاتُ المِلاحْ
كلُّ غصنٍ تَعْتَرِى أَعطافَه رِعدةُ النشوان من كأْسِ اصطباح

وهكذا فقد أوجز الشاعر فى هذه الخمرية جمال الطبيعة المتنوع ، ونلاحظ أن الشاعر يقبل على الطبيعة بثقافته الشعرية فيتأملها ويستخرج من المعانى أروعها : فإذا بقامات الملاح بعض نباتها وإذا بالنشوة تسرى فى أعصانها وبالفتنة تأسر بصر الشاعر . فيبدو عالم الطبيعة فى حركة وزينة وطرب .

إلى جانب هذا الوصف الذى تتجلى فيه الطبيعة حية مشخصة تبدو عناية الشاعر بتصوير الطبيعة اللامعة على مثال ابن المعتز فى العناية بالشكل وتجمياه . كقوله :

اشربْ على بركةِ نَيْلُوفَرٍ محمَّرةِ النُّوَّار خضراءِ
كأَنما أَزهارُها أَخرجتْ أَلسنةَ النارِ من الماءِ

هذه الأوصاف وغيرها ترسم لنا فتنة ابن حمديس بالطبيعة وإقباله على مباهجها ، وهو بذلك يعبر عن بيئته الجميلة التى تنقل فى أفيائها وعما اعتاده شعراء عصره من الإقبال على استجلاء محاسنها والتنزه فى رياضها. وقد قدّم لنا الشاعر بعض الأوصاف التى تتجلى فيها روح الابتكار والإبداع والتى تبدو من خلالها نفسه الحزينة كقوله فى وصف نهر :

ومُطَّرِدِ الأَجزاءِ يَصْقُل مَتْنَهُ صَبًا أَعلنتْ للعينِ ما فى ضميرِهِ
جريحٍ بأَطرافِ الحَصَى كلما جَرَى عليها شَكَا أَوجاعَه بخريرِهِ

وكقوله أيضاً يصف نهراً ينبعث من عين ماء :

وَمُرْوٍ صدى الروضات يحسب ذائباً على الأَرض منه جملةٌ تَتَبَعَّضُ

كأَنَّ له فى الجسم روحاً إذا جَرَى به نهضُهُ والجسمُ بالروح يَنْهَضُ
وما هو إلا دمعُ عينٍ كأَنها لطول بكاءٍ دهرَها لا تُغَمِّضُ
إذا سَرَحَتْ للسقى من كل جانبٍ رأَيتَ بقاع الأَرض منه تَرَوَّضُ
يقيمُ عليها الإِنسُ والصبحُ مقبلٌ ويرحل عنها الوحشُ والليلُ مُعْرِضُ

فهذا الوصف ينطق بالإمعان والتأمل فى صور الطبيعة ويعزف من مادة نفسه الحزينة .

وفتنة الشاعر بالطبيعة جعلته يُدخل أوصافها فى أغراض الشعر الأخرى . فأوسع أغراض الشعر عنده المدح ويليه الوصف ، ولكن الطبيعة تنساب فى جملة أغراضه ، فيصف الطبيعة فى الغزل ويصور محاسن الحبيب على مثال محاسن الطبيعة ، ويصفها فى المدح بل أكثر شعره المدحى مصبوغ بصبغة الطبيعة ، ويصورها قوية فى الحماسة والفخر ، وحزينة باكية فى الرثاء .

وابن حمديس أحد أولئك الشعراء الذين جمعوا بين وصف الطبيعة الطبيعية والطبيعة الصناعية كالقصور والبرك والتماثيل والرسوم . فلنسمعه يصف بركة فى قصر ابتناه المنصور بن أعلى الناس ببجاية ، وعلى هذه البركة أشجار من الذهب والفضة وأسود من المرمر يخرج من أفواهها الماء كما يخرج من أطراف تلك الأشجار فيسمعُ لها خرير وصفير ، قال :

وضَراغمٍ سكنتْ عرينَ رِئاسةٍ تركتْ خريرَ الماء فيه زئيرا
فكأَنما غَشَّى النُّضَارُ جسومَهَا وأَذاب فى أَفواهها البِلُّورا
أُسْدٌ كأَنَّ سكونَها متحرّكٌ فى النفس لو وجَدَتْ هناك مُثيرا
وتذكَّرتْ فتكاتِهَا فكأَنما أَقْعَتْ على أَدبارها لتثورا
وتخالها ، والشمس تجلو لونها نارًا ، وأَلسُنَها اللواحسَ نُورا

فكأنما سَلَّتْ سيوفَ جداولٍ ذابت بلا نارٍ فعُدْن غديرا
شجريةٌ ذهبيةٌ نَزَعَتْ إلى سِحْرٍ يُؤَثِّر فى النُّهَى تأْثيرا
قد سُرِّحتْ أَغصانُها فكأَنما قَبَضتْ بهنَّ من الفضاءِ طيورا

ونلاحظ أن هذا الوصف دقيق التفاصيل أنيق اللفظ إلا أنه جامد ضعيف الإيحاء . وهكذا نرى أن أكثر أوصاف الشاعر لوحات جميلة دقيقة التقاسيم واضحة الزخرف ولكنها لا تشع بروح الحياة ، وهو يشبه بها ابن المعتز وابن خفاجة بل يشبه أكثر الشعراء الوصافين فى العربية الذين يعتمدون على الصورة البصرية فى وصفهم أكثر من اعتمادهم على وحى القلب وإشعاع النفس وهزة العاطفة .

والخلاصة أن ابن حمديس شاعر فُتِن بالطبيعة وعكف عليها ، عندما كان ينطلق من قيود همومه وأحزانه ، ومتَّع بصره بجمالها وصوَّرها صوراً أمينة عبرت عن جمالها فى كثير من الحذق والصنعة . وقد نفخ فيها من فنه أكثر مما أعطاها من روحه . ونحن إذا أعجبنا بشعره فى وصف الطبيعة فإنما نعجب بما فيه من روائع الفن ، ويبقى ابن حمديس . فى نظرنا ، شاعراً شاكياً لأن المحنة التى حلت بوطنه الأول صقلية جعلته دائم الأسى ، فأخذ يشكو الزمان ولؤم الناس ويتبرم بالحياة على طريقة أبى العتاهية ؛ ولهذا كان من الطبيعى أن يكون شعر الشكوى أكثر انسجاماً مع نفسيته وحياته التى ذكرنا خلاصة عنها .

ابن خفاجة (٤٥٠ – ٥٣٣ هـ) :

وهذا شاعر آخر من شعراء دور ملوك الطوائف تتمثل فيه الجدة والحداثة . ويعكس بيئة الأندلس وطبيعتها الضاحكة ، وتتجلى فيه الصفة الأندلسية وحبه للطبيعة أكثر من غيره .

ولد أبو إسحق إبراهيم بن أبى الفتح بن خفاجة سنة ٤٥٠ هـ فى بلدة شَقَـر . وهى مدينة منعزلة فى شرقى الأندلس مشهورة بجمال طبيعتها . وسافر إلى عدوة

المغرب فاشتد شوقه إلى وطنه الجميل ورجع إليه ومات سنة ٥٣٣ هـ فى المدينة التى ولد فيها .

والأخبار التى بين أيدينا ضنينة بتفاصيل حياة الشاعر ، إلا أننا نعلم أنه عاش حياة هادئة ولم يتصل بأحداث السياسة . وفى ديوانه عدد من المدائح ولكنه لم يستذل نفسه لهذا الغرض ، وأكثر مدائحه فى أبى إسحق إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين الذى خلف أباه فى دولة المرابطين .

عاش ابن خفاجة طويلا وتجاوز الثمانين ، واستمتع فى شبابه وكهولته بالحياة واقتنى لذاتها مع إخوانه وأصدقائه فى أحضان الطبيعة ومجالس اللهو فيها . وفى آخر أيامه اعترته الوحشة فبكى صباه وتنسك إلى أن وافته المنية .

لقد كان ابن خفاجة شاعر عصره ، استولت عليه روح المرح والمتاع بالحياة فأقبل على الطبيعة يتنزه فى مغانيها ويتملى من مباهجها فتمتلئ نفسه بشراً ويعبر عنها تعبيراً يفيض حبوراً . ولقد كان لنشأته المترفة ولجمال بلدته أثر فى تغذية خياله وتكوين تأملاته فنظر إلى الطبيعة نظرة طويلة فاحصة ساعدته على دقة التعبير عن معانيه . وقد سمى بشاعر شرقى الأندلس ، كما سمى بالشاعر البستانى ، ولقبه المقرى بصنوبرى الأندلس لعنايته بوصف الطبيعة ولا سيما الجانب الضاحك منها .

فما هى المظاهر الطبيعية التى وصفها وما ميزاته فيها ؟

لقد وصف الشاعر الطبيعة بجميع مظاهرها ومباهجها ، فوصف الطبيعة الصامتة برياضها وأشجارها وأزهارها وأنهارها وجبالها ومفاوزها وسمائها ونجومها وما يتصل بذلك كله من نسيم ورياح وأمطار ، وكان الشعور الغالب على هذا الوصف المرح والبشر إلا ما كان من أمر وصفه للجبل إذ ساده التأمل والنظرة الحزينة . ووصف أيضاً الطبيعة الحية كالفرس والذئب وبعض الطيور ، وهكذا فقد كانت الطبيعة مستولية على حواسه ، ولم يستطع أن ينساها حتى فى أغراضه الأخرى ، فتوثقت الصلة بينه وبينها فأخذ يشعر بالبشر يحيط به عندما يحل فى مغانيها وإذا بها ذات جمال ودلال وبهاء ، فلنسمعه يصفها وقد اختالت زينة وبهجة وبدت تشارك الغادة الفاتنة فى جمالها :

وَكِمامةٍ حَدَرَ الصباحُ قناعَها عن صفحةٍ تَنْدَى من الأَزهارِ
فى أَبطحٍ رَضَعت ثغورُ أَقاحه أَخلافَ كلِّ غمامة مِدْرار
نَشَرت بحِجْرِ الأَرض فيه يدُ الصَّبا دُررَ الندى ودراهمَ النُّوَّار
وقد ارتدى غصنُ النقا وتقلَّدت حَلْيَ الحَبابِ سوالفُ الأَنهار
فحللتُ حيث الماءُ صفحةُ ضاحك جَذْلٍ وحيث الشطُّ بَدْءُ عِذَار
والريحُ تَنْفض بُكْرةً لِمَمَ الرُّبى والطَّلّ يَنْضَحُ أَوجهَ الأَشجار
مُتَقَسِّمُ الأَلحاظِ بينَ محاسنٍ من رِدْفِ رابيةٍ وخَصْرِ قَرَار
وأَراكةٍ سَجَعَ الهديلُ بفرعها والصبحُ يُسفر عن جبين نهار
هزَّتْ له أَعطافَها ولربما خلعتْ عليه مُلاءَةَ النُّوَّار

والشاعر ينظر إلى الطبيعة نظرة محب والأبيات الآتية تمثل نفسيته المحبة التى يتوزعها جمال الطبيعة وجمال الإنسان ، قال فى مقدمة قصيدة يمدح بها أبا الحسن ابن نعيم :

وإنى وإن جئتُ المشيبَ لمولَعٌ بطُرَّةِ ظِلٍّ فوقَ وجهِ غَدير
فيا حبذا ماءٌ بِمُنْعَرجِ اللِّوَى وما اهتزَّ من أَيكٍ عليه مَطِير
ونفحةُ ريح للربيع ذكيةٌ ولمحةُ وجهٍ للشباب نَضِير
ونعسةُ طرفِ العين من سِنَةِ الكَرَى لِرَجْعِ خريرٍ أَو لشَجْوِ هَدِير

ويمكننا أن نلخص ميزاته فى وصف الطبيعة فى العناصر الآتية :

١ — اتصاله بالطبيعة وإشراك حواسه بها ، فقد خاطب الشاعر الطبيعة

وامتزج بها في بعض قصائده ، واتصل بها اتصال الصديق بالصديق ولجأ إليها واستمع إلى عظاتها فى رحابها وقصيدته فى وصف الجبل خير شعره الذى يمثل هذه الخاصة . فقد أثار مرأى الجبل فى نفسه عاطفة إنسانية جعلته يبعث فى هذا الطود المنتصب رعشة الحياة ، فأخذ يستمع إلى عظاته وعبره ، ويترجم له أفكاره وحسه ، وبدا الجبل شيخاً وقوراً متململا من طول بقائه وهو يشاهد مواكب الإنسانية تمر وتمضى ويطويها الزمن(انظر هذه القصيدة فيما يأتى من المنتخبات . ص ١٣٩).

هذه القصيدة فى وصف الجبل تمنحنا نفحة جديدة للشعر الأندلسى هى هذه المشاركة فى العواطف التى يشعر بها المتأمل لسحر الطبيعة وما يعتريه من رهبة أو طرب وإعجاب . ولهذا نستطيع أن نقول إن ابن خفاجة قد استطاع فى هذه القصيدة أن يناجى الطبيعة على نسق جديد لم يعهده الشعر العربى القديم ، فأشرك النفس الإنسانية بسر الطبيعة وأدرك ما يسمى عند الفرنجة بحس الطبيعة .

٢ — الطبيعة عند ابن خفاجة ضاحكة طروب ، هى مسرح للهو ومقصف للشراب ، ولذا فقد هتف ابن خفاجة بالخمر فى جو الطبيعة المشرق الجميل ، فلنسمعه يصف هذه الحديقة الراقصة لنرى أن الطرب والرقص والغناء وسمات الحسن هى قوام هذا الوصف وأن الخمر ظل ضئيل فى هذا الوصف للطبيعة اللاهية :

وصقيلةِ الأَنوارِ تَلْوى عِطْفَها ريحٌ ، تلفُّ فروعَها ، معطارُ
عاطَى بها الصهباءَ أَحْوَى أَحورٌ سحّابُ أَذيال السُّرى سحّارُ
والنَّوْر عِقْدٌ والغصونُ سوالفٌ والجِذْع زَنْدٌ والخليج سِوارُ
بحديقةٍ ظَلَّ اللَّمى ظِلاًّ بها وتطلَّعتْ شَنَبًا بها الأَنوارُ
رَقَص القضيبُ بها وقد شَرِب الثَّرَى وشَدَا الحمامُ وصفَّقَ التيَّارُ
غنَّاءَ أَلْحَفَ عِطْفَها الوَرَقُ النَّدى والتفَّ فى جَنباتها النُّوَّار

فتطلَّعتْ فى كل موقع لحظةٍ من كلِّ غُصن صفحةٌ وعِذارُ

ومثل هذا الجو نجده فى وصف هذه الأراكة الحسناء التى ضربت ظلها فوق هذا الجمع الطروب بجوار جدول نثرت عليه الأزهار ودارت حول ضفافه كؤوس خمر عروس فاجتمعت فى هذه الروضة فتنة الطبيعة ونشوة الطرب :

وأراكة ضَرَبَتْ سماءً فوقَنا تَنْدَى ، وأفلاكُ الكؤوس تُدارُ
حَفَّتْ بدوحتها مجرَّةُ جدول نَثَرت عليه نجومَها الأزهارُ
وكأنها وكأن جدولَ مائها حسناءُ شُدَّ بخصرها زُنَّار
زَفَّ الزجاجُ بها عروسَ مُدامةٍ تُجْلَى ونُوَّار الغصون نِثار
فى روضةٍ جُنْحُ الدجى ظِلٌّ بها وتجسَّمت نَوْرًا بها الأنوار
غنَّاء ينشر وشيَه البزَّازُ لى فيها ويَفتُقُ مِسْكَهُ العطار
قام الغناء بها وقد نَضَج الندى وجهَ الثرى واستيقظ النُّوار
والماء من حَلْى الحَباب مُقَلَّدٌ زَرَّت عليه جيوبَها الأشجار

وتستهوى الشاعر شجرة نارنج مثمرة فيصفها فإذا بها فى حلة بهية ، وإذا الأوصاف الحسية تندمج بما يبعث فيها من حركة وحياة ، وإذا الطبيعة التى تحيط بها مرحة مغردة ، يخطب فيها الطير ، وليس علينا بعد من عذر إذا لم نمل طرباً فى أفياء هذا الدوح الظليل الرطيب :

ألا أفصحَ الطيرُ حتى خَطَبْ وخفَّ له الغصنُ حتى اضطربْ
فمِلْ طَرَباً بين ظلٍّ هَفَا رطيبٍ وماءٍ هناك انْثَغَبْ
وجُلْ فى الحديقة أختِ المُنَى ودِنْ بالمُدامة أمِّ الطرب

وحاملةٍ من بناتِ القَنَا أَماليدَ تحمل خُضْر العَذَب
تنوبُ مُوَرَّقَةً عن عِذار وتَضْحَكُ زاهرةً عن شَنَب
وتَنْدَى بها فى مَهَبِّ الصَّبا زبرجدةٌ أَثمرتْ بالذَّهَب
تُفَاوِحُ أَنفاسَها تَارةً وطوراً تغازلها من كَثَب
فتبسِمُ فى حالة عن رِضا وتنظر آونةً عن غَضَب

٣ — هذه الحياة التى شعت فى الأمثلة السابقة تَسِم أكثر أوصاف الطبيعة عند ابن خفاجة . فهو يشخّصها ويرى فى جمالها جمال المرأة ويصورها على نحو إنسانى تملؤه الحركة والنشاط . ولهذا التشخيص أمثلة كثيرة فى شعره ، فلنسمعه يصف شجرة منوّرة :

يا رُبَّ مائسةِ المعاطف تَزْدَهِى من كل غُصنٍ خافق بوشاح
مهتزةٍ يرتجُّ من أَعطافها ما شئتَ من كَفَلٍ يموج رَدَاح
نفضتْ ذوائِبَها الرياحُ عشيةً فتملَّكتها هِزَّةُ المرتاح
حطَّ الربيع قناعَها عن مَفْرِقٍ شمطٍ. كما ترتدُّ كأْسُ الراح
لَفَّاءُ حاك لها الغمام مُلاءَةً لبستْ بها حسناً قميصَ صَباح
نَضَح النَّدى نُوَّارَها فكأَنما مسحت معاطِفَها يمينُ سَماح
ولوى الخليجُ هناك صفحةَ مُعرِضٍ لثمتْ سوالفَها ثغورُ أَقاح

٤ — وفتنة الشاعر هى على الأغلب فى الرياض والزهور ولهذا لقب بـ « الجنّان » ، ويعتمد على التشخيص — كما رأينا — والتشبيه بمحاسن المرأة فى إظهار محاسن

روضياته ، وقد يقف عند بعض الجزئيات فيها ، ولكن كثيراً ما تظهر روضياته فى إطار من اللهو على شكل نزهات فى رحاب الطبيعة التى يبدع فى تجسيمها كقوله :

سَقياً ليومٍ قد أَنخْتُ بسرحةٍ رَيَّا تلاعبها الشمال فتلعبُ
سَكْرَى يُغَنِّيها الحَمَامُ فتنثنى طَرَباً ويسقيها الغمامُ فتشرب
يلهو فَتُرفع للشبيبةِ رايةٌ فيه ويطلُعُ للبَهارَةِ كوكبُ
والرَّوضُ وجهٌ أَزهرٌ والظِّل فرعٌ أَسْودٌ والماءُ ثغرٌ أَشنبُ
فى حيث أَطربنا الحَمام عشيةً فشدا يُغَنِّينا الحمامُ المطربُ
واهتزَّ عِطْفُ الغصن فى طَرَبٍ بنا وافترَّ عن ثغر الهلال المَغْرِبُ
فكأَنه والحسنُ مقترنٌ به طَوْقٌ على بُرد الغمامة مُذْهَبُ
فى فتيةٍ تَسْرِى فينصدعُ الدُّجى عنها وتَنْزل بالجَديب فَيَخْصَبُ
كَرُموا فلا غيثُ السماحةِ مُخْلفٌ يوماً ولا بَرْقُ اللطافة خُلَّبُ
من كلِّ أَزهرَ للنعيم بوجهه ماءٌ يرقرِقُهُ الشبابُ فيَسْكُبُ

على أن روضياته تتشابه فهى محصورة فى إطار واحد تمثله الحديقة بما فيها من أشجار وجداول وأزهار وظلال وارفة وحمائم تتداعى ونسمات عليلة ونداى يشربون ويغنون ويطربون .

٥ ــ وقد وصف ابن خفاجة أيضاً الطبيعة الحية كالفرس والذئب وله فى وصف الفرس أبيات تتراءى فيها البراعة والجدة فى التصوير فيقول :

ومُطَهَّم سَرِقِ الأَديم كأَنما أَلِفَتْ معاطفُهُ النجيعَ خضابا
طَرِبٌ إذا غَنَّى الحسامُ ممزَّقٌ ثوبَ العَجَاجَةِ جيئةً وذهابا

قَدَحَتْ يدُ الهيجاءِ منه بارقاً متلهباً يُزْجِي القتامَ سَحابا
ورمى الحِفاظُ به شياطينَ العِدى فانقضَّ فى ليلِ الغُبار شِهابا
بسامُ ثغر الحَلْى تحسِبُ أنه كأْسٌ أثار به المِزاج حَبَابا

٦ – يتبين مما تقدم أن ابن خفاجة يمثل نهضة شعر الطبيعة فى الأندلس ، وقد استطاع أن يصور طبيعتها الجمياة والحياة اللاهية فى أحضانها ، وكان فى وصفه مصوراً بصرياً بارعاً يعتمد على دقة ملاحظته إلى جانب قوة خياله . وقد يكون قد أغرق فى الصنعة والمحسنات البديعية ومع ذلك استطاع ألا يجعلنا نشعر بثقلها إلا فى بعض أوصافه . على أن الصنعة عنده أداة للتجميل وقد امتزجت بقوة خياله وأناقة ألفاظه وترف صوره فجاءت مقبولة كقوله فى وصف نهر :

لله نهرٌ سالَ فى بَطْحاءِ أشهى وُرُوداً من لَمَى الحسناءِ
متعطِّفٌ مثلَ السِّوار كأنه والزهرُ يكنُفُهُ مَجَرُّ سَمَاءِ
قد رَقَّ حتى ظُنَّ قُرصاً مُفْرَغاً من فضةٍ فى بُردةٍ خَضْراءِ
وغدتْ تحُفُّ به الغصونُ كأنها هُدْبٌ تَحُفُّ بمقلةٍ زرقاءِ
والماء أَسْرَعَ جَرْيَهُ مُتَحَدِّراً مُتَلَوِّياً كالحيةِ الرَّقْطاءِ
والريحُ تعبثُ بالغصونِ وقد جَرَى ذهبُ الأَصيل على لجينِ الماءِ

وابن خفاجة من الشعراء الذين اتصلوا بالطبيعة كما أشرنا ، ولكن هذا الاتصال لم يبلغ مبلغ الامتزاج الكلى بها إلا فى بعض قصائده ولا سيما قصيدته فى وصف الجبل ، وتبقى الطبيعة عنده صورة لاعتدال القد واهتزاز الخصر وابتسام الثغر ، وهى فى صورها ترضى لذة الحس وقلما تبعث فى النفس لذة الروح . وشأن شاعرنا فيها كشأن باقى أعلام شعراء الطبيعة فى أدبنا العربى ، فهم لم يلجئوا فى وصفها إلى

إدراك حس الطبيعة كما أدركه الشعراء الغربيون وإنما بقيت الطبيعة عندهم متاعاً للعين وفنًّا وصفيًّا تجمله الزخارف والألوان ولا تتشابك فيه العواطف والأحزان إلا نادراً .

* * *

هذه أسماء بارزة فى الشعر الأندلسى أتينا على ذكرها لنبين جانباً هامًّا من صفات هذا الشعر . على أن ثمة شعراء آخرين لا يقلون عن هؤلاء شأناً لم نأت على ذكرهم لضيق المجال فلتراجع أخبارهم فى مظانها . ولكى يتم لنا فهم صفات هذا الشعر لابد من استعراض خصائص مختلف أغراضه ، فما هى هذه الخصائص التى اتصفت بها أغراض الشعر الأندلسى ؟

الفصل الرابع

أغراض الشعر الأندلسى

نظم شعراء الأندلس الشعر فى مختلف الأغراض ، ولم يشذوا ، بوجه عام ، عن القواعد والأساليب التى اتبعها المشارقة فى أشعارهم .

المدح :

فقد حافظ المدح على الأسلوب القديم وكان الشعراء يعنون بالاستهلال وحسن التخلص ، وربما جعلوا صدور مدائحهم وصفاً للخمر أو للطبيعة أو للبلد الذى نشأ فيه الشاعر أو للمرأة التى أحبها ، وقلما شذ بعضهم عن هذا السبيل ، كما وصفوا الفلاة والناقة والجواد ووقفوا على الديار والأطلال ولكنهم لم يطيلوا وصفهم هذا ويستفيضوا به . ولم يغرقوا فى استعمال الغريب إلا ما كان من ابن هانئ فقد تعمد الغريب وأكثر المغالاة محاولا تقليد المتنبى . وكانت مدائحهم محشوة بالتملق والاستجداء على طريقة المشارقة .

الرثاء :

وكذلك فى الرثاء لم يختلف الأندلسيون عن المشارقة من حيث التفجع على الميت ووصف المصيبة وتعداد المناقب ، فكانت معانيهم وأساليبهم متشابهة . وكانوا يسهلون مراثيهم بالحكم كالمشارقة ، إلا أن حكمهم كانت ساذجة لا عمق فيها ، ترتكز على الشكوى من الأيام .

وكان رثاؤهم للممالك الزائلة أكثر روعة أحياناً من رثاء شعراء المشرق ، فقد أشجاهم أن يروا ديارهم تسقط بلداً إثر بلد فى أيدى الغرباء من المكتسحين ، فبكوها بكاء من يبكى على فراق وطن أحبه وفتن بجمال طبيعته ورخاء أيامه . فبكى ابن اللبانة دولة بنى عباد . وابن عبدون دولة بنى الأفطس عندما أزالهما

ابن تاشفين ، وبكى أبو البقاء الرندى الأندلس بأسرها بعد أن استردها النصارى ، وقد بدت لوعة صادقة فى هذه القصائد الثلاث لا سيما فى قصيدة أبى البقاء التى يقول فيها :

لكلِّ شىءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصَانُ فلا يُغَرَّ بطيبِ العيشِ إنسانُ
هى الأُمورُ كما شاهَدْتَها دُوَلٌ مَنْ سَرَّه زمنٌ ساءَتْه أَزمانُ
وهذه الدارُ لا تُبْقِى على أَحَدٍ ولا يَدوم على حالٍ لها شَانُ
أَينَ الملوكُ ذووالتيجانِ من يَمَنٍ وأَينَ منهم أَكاليلٌ وتيجانُ
أَتَى على الكُلِّ أَمرٌ لا مَرَدَّ له حتى قَضَوْا فكأَنَّ القومَ ما كانوا
وصارَما كان من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ كماحَكَى عن خيالِ الطيفِ وَسْنَانُ[1]

ويتصل بالرثاء الشكوى والاستعطاف وقد امتاز بهذا الغرض الملوك والأمراء لكثرة ما نالهم من المحن والنكبات فذلّوا بعد عز وهبطوا بعد رفعة ، وقد رأينا نوعاً من هذه الشكوى فى شعر المعتمد بن عباد بعد أن نُكب ونفى إلى أغمات فى إفريقية .

الهجاء :

أما الهجاء فلم تقم له سوق رائجة فى الأندلس ، ولا سيما الهجاء السياسى ، لقلة الأحزاب السياسية . وقد ظهر فى عهد الأمراء هجاء بين المضرية واليمانية ولكن لم يحفظ لنا منه شىء جدير بالاهتمام . وقد قام بعض الشعراء بهجو الفرنجة فى أثناء الحروب معهم ، وهجو البرابرة عندما استفحل أمرهم ، وكانت الغاية من الهجاء التكسب والمجون ، فلم يكن هناك هجاء سياسى بالمعنى المعروف عند المشارقة كالدفاع عن العرب وذم الشعوبية ، لأن الشعوبية لم يكن لها شأن فى الأندلس . وهذا الهجاء العابث كان مشحوناً بالإقذاع والفحش . وعلى الجملة فإن الشعراء الذين

(١) اقرأ تمام القصيدة فى النفح ج ٦ ص ٢٣٢ (طبعة محمد محى الدين عبد الحميد) .

مارسوا هذا الغرض لم يبلغوا فيه شأن المشارقة . وأشهر من عُرف بهذا الفن منهم أبو بكر المخزومى الأعمى ، وهو من شعراء المائة الخامسة للهجرة ، وبينه وبين نزهون بنت القلاعى الغرناطية معابثات فاحشة . قال فيها المخزومى :

على وجه نزهونٍ من الحُسْنِ مِسْحَةٌ وتحت الثياب العارُ لو كانَ بادِيا
تواصفُ نزهونٍ توارثُ غيرِها ومن قَصَدَ البحرَ استقلَّ السواقيا

فأجابته :

إنْ كانَ ما قلتَ حقًّا مِن بعد عهدٍ كريم
فصارَ ذِكْرِى ذَميماً يُعْزَى إلى كلِّ لُوم
وَصِرتُ أَقبحَ شىءٍ فى صورةِ المَخْزُومى

الحكمة :

وكذلك الأمر فى الحكمة ، فقد ذكرنا أن الشعراء الأندلسيين لم ينصرفوا إلى حياة التأمل ، لذلك بدت حكمتهم ساذجة بعيدة عن العمق . وكذلك الفلسفة لم تنتشر فى تلك الربوع منذ دخول العرب إليها ، بل تأخر ظهور الفلاسفة إلى أواخر القرن الخامس ، فى عصر المرابطين والموحدين ، فقد كان هذا العصر عصر نهضة فى الفلسفة والتأليف ، فيه ظهر ابن باجه وابن رشد وابن طفيل صاحب رسالة « حىّ بن يقظان » وابن ميمون من الفلاسفة وابن خاقان وابن بشكوال والإدريسى وابن جُبير وابن بسام من المؤلفين ، ولولا ظهور ابن حزم قبل رجال هذه الطبقة لقلنا إن هذا العصر احتكر العلم والفلسفة . وسبب تأخر نهضة الفلسفة فى الأندلس ، واقتصارها على فئة محدودة من المختصين ما كان للفقهاء من سلطان على ملوك الأندلس فإنهم ضيقوا حرية التفكير ، وكفّروا كل متفلسف وأفتوا بنفيه وإحراق كتبه ، وكانت العامة تجارى أهواء الفقهاء فيضطر السلطان تجاه ثوراتهم إلى استرضائهم بإتلاف كتب الفلاسفة كما فعل الحاجب المنصور ، وبمعاقبة المتهمين

كما فعل صاحب إشبيلية بابن هانئ إذ نصح له بالابتعاد عن المدينة كما ذكرنا .

وقد قلنا إن ابن هانئ كان أكثر الشعراء الأندلسيين اهتماماً بالحكمة فى شعره محاولا بذلك تقليد المتنبي ولكنه بقى مقصراً عنه أشواطاً . وحكمته تدور حول شكوى الدهر والتحذير من الدنيا ، فكانت كحكمة غيره من الشعراء مبتذلة بعيدة عن النضج .

فمن قوله فى قصيدة يرثى بها ولداً لإبراهيم بن جعفر بن على أحد ممدوحيه :

وَهَبَ الدهرُ نفيساً فاسْتَرَدْ ربما جادَ بخيلٌ فَحَسَدْ
كلما أعطى فَوَفَّى حاجةً بِيَدٍ شيئاً تَلَقَّاه بِيَد
خابَ مَنْ يَرْجُو زماناً دائماً تُعْرَفُ البأْساءُ منه والنَّكَد
فإذا ما كَدَّر العيشَ نَمَا وإذا ما طَيَّبَ الزادَ نَفَد
فلقد أَذْكَرَ مَنْ كان سَهَا ولقد نَبَّهَ مَنْ كانَ رَقَد

وقال فى قصيدة فى الرثاء :

إنَّا وفى آمالِ أَنفسِنَا طُولٌ وفى أَعمارِنَا قِصَرُ
لَنَرَى بأَعيننا مصارِعَنَا لو كانت الأَلبابُ تَعْتَبِرُ
ممَّا دَهانا أَنَّ حاضِرَنا أَجفانُنا والغائبَ الفِكَرُ
وإذا تَدَبَّرنا جَوَارحَنا فَأَكَلُّهُنَّ العينُ والبَصَرُ
لو كانَ للأَلبابِ مُمْتَحِنٌ ما عُدَّ منها السمعُ والبصرُ
أَىّ الحياة أَلَذُّ عِيشَتَها من بعد علمىَ أَننى بَشَرُ
خَرِسَتْ لعمرُ الله أَلسنُنا لَمَّا تَكَلَّمَ فوقَنا القَدَرُ

الزهد :

وإذا كانت الحكمة ضئيلة جافة فى الشعر الأندلسى ، فلم يكن الزهد كذلك . وقد كان لسلطة الفقهاء تأثير فى دفع الناس إلى التعصب الدينى والتظاهر بالعبادة والعزوف عن الدنيا ومباهجها ، حتى كثر المتزهدون وأصبحت صناعة الزهد شيئاً مرغوباً . فكان الشعراء ينظمونه بدافع دينى أحياناً وبدافع تقليدى أحياناً أخر . على أن من الشعراء من نظمه وقد شعر حقاً بندمه وأدرك غرور الدنيا فأخذ يذكر ذنوبه طالباً مرضاة الله وعفوه . وهذه ظاهرة طبيعية لكل إنسان انغمس فى الملذات إذ لابد له من ساعات ندم يخلد فيها إلى نفسه ، ومثال أبى نواس شاهد على ذلك فى توبته الأخيرة .

على أن كثرة الحروب والفتن وتقلب الأحوال أثرت فى نفوس الشعراء فمالوا إلى الطعن بغدر الأيام وغرور الزمن ، وقادهم هذا الموقف إلى لون من الشعر الشاكى الذى انتهى بهم إلى الزهد والتقشف وذكر الله . فلنسمع ابن عبد ربه وهو يصف الدنيا بأنها دار للفجائع والمصائب :

أَلاَ إنما الدنيا غضارةُ أَيْكَة ... إذا اخضرَّ منها جانبٌ جفَّ جانبُ
هى الدار ما الآمال إلا فجائعٌ ... عليها ، ولا اللذَّاتُ إلا مصائبُ
فكم سَخَّنَتْ بالأمس عيناً قريرةً ... وقَرَّتْ عيوناً ، دمعُها اليومَ ساكبُ
فلا تكتحلْ عيناك منها بِعَبرةٍ ... على ذاهبٍ منها ، فإنك ذاهبُ

ولنسمع ابن حمديس يبكى ذنوبه ، فنجد فى هذا البكاء برماً بالحياة ونظرة خاشعة إلى الله تتمثل فيها سمات الشعر الزهدى بشكل عام :

يا ذنوبى ثَقَّلْتِ واللهِ ظَهْرِى ... بانَ عُذرى فكيف يُقبل عُذرى
كلما تُبْتُ ساعةً عدتُ أُخرى ... لضروبٍ من سوءِ فعلى وهُجْرى

دبَّ مَوْتُ السكونِ فى حَرَكاتى وخَبَا فى رمادِه حرُّ جَمْرى
يا رفيقاً بعبدِهِ ومحيطاً عِلمُهُ باختلافِ سِرِّى وجَهْرى
مِلْ بقلبى إلى صلاح فَسَادى منه واجْبُرْ برأْفةٍ منكَ كَسْرى
وأَجِرْنى بما جَنَاهُ لسانى وتَنَاجَتْ به وساوسُ فِكْرى

التصوف :

ويتصل بالزهد التصوف ، وقد ظهر بين الشعراء الأندلسيين من نظموا شعراً صوفيًّا رائعاً كابن عربى شيخ المتصوفين . فقد ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ وانتقل إلى إشبيلية ثم سافر إلى الشرق ومات فى دمشق سنة ٦٣٨ هـ ، وله قصائد وموشحات صوفية سائرة . وكان هناك اتصال بين متصوفة المشارقة ومتصوفة المغاربة من جراء تبادل الرحلات والتنقل بين الغرب والشرق ، فلمسنا لهذه وحدة فى طرائقهم وأساليبهم .

الشعر الحماسى :

وإذا كان الشعر الزهدى قد دعت إليه ظروف الشعراء وواقعهم فلم يكن الأمر كذلك فيما يختص بشعر الحماسة . فقد كان شعراء الأندلس بعيدين عن أن يعيشوا عيشة الأبطال والفرسان ، لذلك اقتصر شعرهم الحماسى على مدح الملوك ووصف معاركهم الحربية ، وكانوا بذلك شعراء مصورين لا شعراء مغاوير يعبرون عما يجيش فى نفوسهم ، ولهذا فقد كان المدح غاية الشعر الحماسى ولم يرتفع من أجل هذا شأنه عندهم ، وبقى الدافع إليه التقليد لا العاطفة . وقد كنا نأمل أن تنفخ فيها غارات الأعداء روح الحماسة ولكن أكثرهم ، ولا سيما شعراء ملوك الطوائف ، قد فضلوا أن يخلدوا إلى شعر الضعف والشكوى والبكاء ، ولعل نفسية الشاعر الأندلسى الوادعة المستسلمة لأحلام الطبيعة والرخاء تلائم هذا النوع من الشعر أكثر من ملاءمتها للشعر الصاخب القوى الذى امتاز به شعراء المشرق ،

ولا شك أن للظروف الإقليمية أثراً فى هذا الاتجاه النفسى الذى أضعف فيهم روح الحماسة وقلل من حدة البداوة ، فرأينا الفخر قد قل فى شعرهم ، وعندما يظهر نراه يصطبغ فى أكثر الأحيان بصبغة دينية لتعلق الشاعر الأندلسى بإسلامه ولما بينه وبين جيرانه النصارى من العداء . أما صفات البطولة والشجاعة فكانت تأتى على شفاههم متكلفة مصطنعة لفقدان الشعور الصميم بأنهم يتحلون بها كما فى حماسيات ابن وهبون من شعراء المعتمد بن عباد وقد توفى هذا الشاعر ، كما يظهر ، فى النصف الأول من القرن السادس للهجرة .

الوصف :

أما الشعر الوصفى فقد ظهر فى أكثر أغراض الشعر ، وأظهر الأندلسيون فيه عبقرية نادرة لا سيما عندما تعرضوا لوصف الطبيعة وجمال العمران ومجالس الأنس والطرب . نعم لم يظهر الوصف فى الشعر العربى كغرض مستقل وإنما رأيناه خلال المدح والغزل وغيرهما من الأغراض ، ولكننا نستطيع أن نقول إن اهتمام الأندلسيين بالوصف كان كبيراً . وعلى الرغم من امتزاجه فى أكثر الأغراض الشعرية فقد استطاع الأندلسيون أن يتفننوا به ويمنحوه بعض الاستقلال ، فهناك شعر وصفى لجميع مظاهر الحياة الحضرية الهانئة من وصف لمجالس اللهو والغناء والرقص والشراب وآلته والصيد وأدواته والنساء وأحوالهن ، وهناك شعر وصفى للطبيعة ولمظاهر العمران والقصور كما سنرى ، وهناك شعر وصفى للحروب والسلاح والسفن ، وغير ذلك مما يتناول الحياة برخائها وحربها ، بطبيعتها الجميلة التى من بها الله ، وبقصورها وساحاتها المرمرية التى زخرفتها يد الإنسان .

ولا عجب فى أن يكون لوصف المعارك نصيب وافر من الشعر الأندلسى فإن الحروب بين المسلمين وأعدائهم الفرنجة لم تنقطع ، ولم تهدأ حرب إلا لتشن أخرى ، لهذا حفلت مدائح الملوك والأمراء بذكر المعارك والجيوش والحراقات ، وقد رأينا نموذجاً من هذا الصنف فى قصيدة ابن هانئ الأندلسى الذى يمدح بها المعز لدين الله الفاطمى ويصف حراقاته .

الغزل ــ الخمر :

وإذا كانت الطبيعة لها المكان الأول بين أغراض الشعر الأندلسى ، فالغزل كان ينساب على شفاه الشعراء ويدعو إليه كل ما فى الأندلس من طبيعة جميلة وحياة حضرية ناعمة ومجالس أنس ورخاء وخمر وغناء ، وقد ذكرنا لكم سابقاً بعض المشاهد عن الحياة اللاهية التى كان يحياها الأندلسيون ، كما أن أسواق النخاسة التى كان يباع فيها الجوارى والغلمان قد شجعت هذه الحياة اللاهية التى وجد الغزل فيها مرتعاً سهلا. ومن الشعراء من أحب حبًّا صادقاً ومنهم من تمتع بوهم الحب وفا ، وقد استطاع الشاعر الأندلسى أن يرسم حبه ولهوه بأبيات تعد من الشعر الجيد لأنها استطاعت أن ترسم الأجواء وتعبر عن خوالج النفوس . إلا أن أكثر غزلهم كان مقيداً بالتقاليد والتكلف ، ولم يستطيعوا أن يخلقوا فى أجواء جديدة إلا عندما استطاعوا أن يهجروا الأسلوب القديم كذكر البادية والأهوال فى سبيل الوصول إلى الحبيب ويتحدثوا عن حبهم ومجالسهم وخلواتهم فى كثير من الانطلاق . إلا أن هذا الحديث قد قادهم إلى حرية مؤذية أحياناً ، فيها الكثير من الفحش والتهتك ، وقد بلغ الغزل فى زمن طوائف الملوك حالة مزرية فى انحطاط ألفاظه ومعانيه وعبَّر بذلك عن حياة العصر المتهتك .

وقد كانت أوصافهم مادية تقليدية فتحدثوا عن سهام الألحاظ وخمر الرضاب وليل الشعر ونرجس العيون وغير ذلك من الأوصاف المألوفة فظهر تقليدهم ولم يجددوا المعانى ، فالمحب ذليل والمعشوقة لا ترحم ، ومن هنا نشأ عندهم ما يسمى بالحب المعذب الذى تفنن الشعراء فى وصفه فرحين بالتذلل للحبيب والخضوع له ، وقلما حدثنا الشاعر عن أفراح الغرام فهو إذاً فى ألم دائم . وقد عقد هنرى به رس[1] فصلا قيماً عن الغزل فى الشعر الأندلسى بيَّن فيه معانيه الأساسية وخصائصه ندعوكم إلى الرجوع إليه ، كما ندعوكم إلى الرجوع إلى الفصل الذى يتحدث فيه هذا المؤلف عن المعانى التى أهمتها الطبيعة والعمران فهو فصل قيم أيضاً . ولعل

---

(١) انظر كتابه الذى أشرنا إليه سابقاً .

أجمل ما فى الغزل الأندلسى هو هذه النغمة المحزنة التى يبكى فيها الشاعر أيام سعادته بالقرب من الحبيب ويحن إلى أيامه الآفلة التى قضى الدهر أن تكون ذكرى لحب مقيم ، وهذه النغمة هى التى منحت قصيدة ابن زيدون فى صاحبته ولاّدة هذه الشهرة حتى تناقلتها كتب الأدب ، فى هذه القصيدة التى مطلعها :

أَضْحَى التنائى بديلاً من تَدانِينا ونابَ عن طِيبِ لُقْيانا تَجافينا

لحن موسيقى ونجوى غرامية شاكية استطاع ابن زيدون أن يحلق بها فى جو غزلى جميل كما سنرى عند الكلام على هذه القصيدة بشىء من التفصيل .

هذا وقد بدت آثار البيئة على أشعار الأندلسيين الغزلية فشاع عندهم الغزل النصرانى وذكر الكنائس والقساوسة والصلبان كغزل ابن الحداد فى نُويْرة النصرانية ، كما شاع عندهم التشبيب بالشعر الأشقر والعيون الزرق لكثرة ما كانوا يصيبون من سبى فرنجة الشمال وهم شقرى الغالب . وكانت تشبيهاتهم مستمدة غالباً من الطبيعة كما ذكرنا ، ولكن كثيراً ما كان يظهر عليها التكلف والصنعة ، وخير أشعارهم الغزلية ما كانت مجردة عن هذا التكلف كما فى قصيدة ابن زيدون السابقة الذكر .

* * *

ولنقل أخيراً إن هذا الشعر فى أغراضه المتعددة لا يختلف كثيراً عن الشعر الشرقى بل لعله لم يكن فى مرتبته من حيث المعانى والصور الفكرية ، وقد نلاحظ أنه قد كبّل بالصنعة فأسفّ أحياناً ولم يستطع أن يفلت من هذا الإسفاف إلا عندما أطلق الشاعر لقلبه حرية القول غير عابئ بقيود البيان والبديع . على أن للشعر الأندلسى ميزة هى هذه الرقة الممزوجة بالجزالة وقد شعر الأندلسيون بهذه الظاهرة فى أدبهم حين قال ابن بسام : « وذهب كلامهم بين رقة الهواء وجزالة الصخرة الصّماء » .

وإذا كانت هذه الأغراض الشعرية التى أتينا على ذكرها قد استطاعت أن تصور لنا ، على أنماط مختلفة من الجودة ، بعض صفات الشعر فى الأندلس ؛

فإن وصف الطبيعة ، وهو أبدع أشعارهم ، قد عرف هناك ازدهاره ووجد فى سماء الأندلس شمسه ونهاره . وقد رأينا كيف كانت الطبيعة مثار قرائح الشعراء الأندلسيين أمثال ابن حمديس وابن خفاجة وغيرهما . فجدير بنا أن نقف عند هذا الشعر — شعر الطبيعة — وقفة نجتلى فيها مزاياه ونوضح أسرار جماله وخفاياه .

وسنوجز الكلام ، فى الفصل الآتى ، على مفهوم هذا الشعر ونشأته فى أدبنا العربى ، ثم نعرج على ذكر بواعثه وخصائصه فى أدبنا الأندلسى ، ونورد فى نهاية الحديث بعض المختارات الشعرية لأعلام شعر الطبيعة فى الأندلس .

الفصل الخامس

شعر الطبيعة

هام الإنسان بالطبيعة منذ أن فتح عينيه على محاسنها وتطلع بحب إلى جمال روضها ورونق سمائها . وقد وجد فيها الشاعر والكاتب ، منذ القديم ، مرتعاً لخياله ومقيلا لأفكاره . وكانت وحيَ من استلهمها ، تنشيه باهتزاز أزهارها وانسياب جداولها ، وتلألؤ طلِّها ، وهدوء ظلها ، فيجود بالكلم الخالد واللوحة الناطقة .

و « شعر الطبيعة » تعبير جديد فى أدبنا ، جاءنا من الآداب الغربية وكان له فيها أصوله وشعراؤه . وقد أطلقه النقاد الغربيون على الشعر الذى كان من أهم مظاهر الحركة الإبداعية الرومانسية Romantisme فى أواخر القرن الثامن عشر . وقد وجد الشعراء الإبداعيون فى الطبيعة ميداناً فسيحاً لحرية العمل ، وتربة خصبة لنمو العواطف الإنسانية ، وموضوعاً أكثر ملاءمة للأسلوب القوى الصريح . والطبيعة كما يفهمها « الرومانسيون » صديقة وفية يحبونها لما تمنحه من جمال لحسهم وهدوء لنفوسهم . فيستسلمون إليها ويشاطرونها المناجاة ويبوحون إليها بعواطفهم وآلامهم ، ويصورونها بقساوتها وجمالها . وكثيراً ما تكون ملجأ نفوسهم التعبة القلقة ، ولذا فهم يفرون إليها ناشدين بالقرب منها طهارة الحياة ونعيم السعادة مع من يحبون ويعشقون . وقد كان جان جاك روسو من أوائل الكتاب الذين غذوا الأدب الفرنسى بهذا الحس الطبيعى العميق .

على أن هذه الحركة كان لها جذور فى الماضى ، فهناك الكثير من الآثار اليونانية التى تغنت بجمال الطبيعة . وقد ظفرت الإلياذة والأوديسة بقسط جميل من هذا الفن . وفى الواقع أن شعر الطبيعة بمعناه العام لم يكن مقتصراً على عصر دون آخر ، بل كان قسمة بين جميع العصور . إلا أنه ساد وعمقت فلسفته وتميز شعراؤه فى الحركة الإبداعية .

شعر الطبيعة فى الأدب العربى :

فما هو شعر الطبيعة فى أدبنا العربى ؟ وعلى أى شكل قاله الشعراء ؟

عرف الشعرُ العربى القديم شعرَ الطبيعة على الشكل الذى أوحت به البيئة البدوية ، وقد تهيأ للشاعر الجاهلى من هذا الفن حظ وافر ، فأخذ يتأمل الطبيعة ويبثها آلامه ويفتن بها ويصورها تارة ببصره وأخرى بقلبه . ويقف على أطلال الديار فتثير شجونه ، وتملك عليه الناقة والبعير والفرس فؤاده ، وتستهويه الصحراء بحيوانها ورمالها وآلها وواحاتها ونجومها وبرقها ومطرها . فالشعر الجاهلى مثل الحياة البدوية من هذه الناحية وصوّرها على النمط الذى مثله الشعر الرعوى فى البيئة الغربية[١] ، فقد مثل هذا الشعر الرعوى الطبيعة بحيوانها وطيورها وغاباتها وحقولها ، وبدا فيه الحب للحياة الريفية ، ولكنه لم يصـــدر فى الجملة عن الملاحظة الذاتية والشعور بل عن التقليد والتخيل[٢] .

وقد نحا شعر الطبيعة فى فجره عند العرب هذا المنحى ، وبقى على الغالب صورة لما تراه العين أكثر من أن يكون مشاركة للعواطف التى توحى بها الطبيعة وانفعالا ذاتيًّا للشعور .

وقد تناول شعر الطبيعة فى العربية ، كما تناول عند الغربيين ، الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة ، ويقصد بالطبيعة الحية ما اشتملت عليه من أصناف الحيوان ما عدا الإنسان ، وبالطبيعة الصامتة مظاهرها ووجودها المتجسد فى سهولها وبحارها وسمائها وبواديها وحدائقها وحقولها وما إلى ذلك .

---

(١) الشعر الرعوى la poésie bucolique فن شعرى وثيق الصلة بشعر الطبيعة la poésie de la nature ، وقد نما هذا الفن وازدهر فى عصر النهضة مع الحركة الإنسانية . ولعل الشاعر الإيطالى بترارك ممن ساعد على نموه بشغفه بالطبيعة وإيوائه إلى الجبال والغابات على حين كان معاصروه يعتبرونها مواطن للشياطين . والقصيدة الرعوية مقطوعة غنائية حوارية قصيرة ذات طابع ريفى تمثل مناظر الطبيعة . وقد كان لرعاة اليونان القدماء حظ فى نشأة هذه الأغانى ، وازدهر هذا الفن فى إيطاليا فى عصر النهضة ، وتقدم فى فرنسا فى القرن السادس عشر متأثراً بريفيات القرون الوسطى .

(٢) انظر « شعر الطبيعة فى الأدب العربى » للدكتور سيد نوفل ص ٩ .

وقسم بعضهم الطبيعة الصامتة إلى طبيعة طبيعية وهى ما أشرنا إليه ، وطبيعة صناعية وهى التى عمل الإنسان فى تأليفها وتنسيقها كالقصور والبرك والزخارف المرمرية وما شابه ذلك .

والطبيعة الصامتة الطبيعية أكثر ملاءمة لمفهوم كلمة « الطبيعة » ، وأكثر إيحاء للحس الطبيعى . فهى التى تحدث فى النفس ذلك الحس الشعورى الذى ينبض بجمالها ، وما أصناف الحيوان فيها ومنشآت اليد البشرية إلا متممات منفصلة عن روح « الطبيعة » بمعناها الحقيقى . وقد يكون وصف العصفور على غصنه أكثر تجاوباً مع شعر الطبيعة من وصفه مجرداً عن الغصن والشجر والدوح والماء .

وليس من صميم الطبيعة ، كفن شعرى ، أن ندمج فيها وصف الجمل والذئب والأسد وما شابهها ؛ إن هذا الوصف أقرب إلى فن الوصف منه إلى شعر الطبيعة الذى نحب أن نجد فيه خصائص مميزة تبدو فى هذا الحس الطبيعى والتجاوب الذاتى .

وإذا كان قد درج بعض النقاد على هذا التقسيم فنحن نقبله كأمر واقع ولكننا لا نستطيع إلا أن نعرف شعر الطبيعة بقولنا :

هو الشعر الذى يمثل الطبيعة وبعض ما اشتملت عليه فى جو طبيعى يزيده جمالا خيال الشاعر ، وتتمثل فيه نفسه المرهفة وحبه لها واستغراقه بمفاتنها .

وكلما كان شعر الطبيعة معبراً عن هذه المشاركة وهذا الاستغراق ومصوراً جمال الطبيعة وفتنها فى شتى مظاهرها كان هذا الشعر مزدهراً ومحققاً غرض موضوعه . والطبيعة فى الواقع معنى كلى يتعاون كل جزء من أجزائها على جعل هذا المعنى كائناً حيًّا خالداً يوحى لقلب الشاعر بالحب والجمال ويبعث فى نفسه شتى العواطف الإنسانية السامية .

فكيف وصف العرب الطبيعة إذاً بعد أن قدمنا هذا التعريف ؟

لقد وصف الشاعر العربى منذ القديم الطبيعة وأحبها ولم تكن غريبة عنه ، ولكنها لم تتميز حينذاك كفن شعرى قائم بذاته ، وقد كان أكثر شعراء الجاهلية يصورون الطبيعة بقسميها الصامت والحى ، وكانوا على الغالب ينظرون إليها نظرة

مصور ومع هذا فقد بدا على وصفهم الشغف بها وبظواهرها ؛ فهذا امرؤ القيس لم يجمد أمام مشاهد الطبيعة فوصف الليل وشبهه بموج البحر ووصف طوله فإذا به لا يتزحزح كأن نجومه شدت بحبال متينة إلى جبل يذبل ، ووصف البرق وجعل لمعانه كلمع اليدين تتحركان بسرعة أو كمصباح راهب ، ووصف الغيث وبدت فتنة الشاعر به ، ثم وقف على الأطلال وبكاها ، وبكاء الأطلال مظهر من مظاهر وصف الطبيعة الذى يتجلى فيه البث والشكوى والتجاوب مع البيئة الطبيعية .

وامرؤ القيس وصف أيضاً الطبيعة الحية فصور فرسه على شكل جدير بالإعجاب ، ووصف الناقة وحمار الوحش والظليم والنعامة وكان وصفه يدل على التفنن والاستقصاء .

ومن هنا يبدو أن وصف الطبيعة عند شعراء الجاهلية كان تعبيراً عن البيئة البدوية ببساطة وصدق .

ولما انتقل العرب من البداوة إلى الحضارة وعرفوا نعيم الحياة وترف القصور وجمال الرياض ، تطور شعر الطبيعة ، ولكنه لم يستطع أيضاً أن يستقل كفن خاص وبقى هو والوصف ممزوجاً بأغراض أخرى كالغزل والمدح والطرد والخمر . وكانت الطبيعة التى وصفها الشعراء آنذاك تختلف عن طبيعة البدوى فى عناصرها ومقوماتها .

وقد كان الحديث عن الطبيعة فى العصور العباسية تعبيراً عن بعض مظاهر هذه الحياة الجديدة اللاهية التى عرفتها هذه العصور ووصفاً لهذه الطبيعة الندية التى فتن بها الشعراء وغير الشعراء .

على أن شعراء العصور العباسية ، على رغم وصفهم لمفاتن الطبيعة بدقة وإعجاب ، لم يكونوا ليستطيعوا الاندماج بها والتعبير عن خفايا شعورهم نحوها . لذلك نزعوا إلى الوصف المادى والعبث اللفظى متأثرين بتيار التأنق والصنعة الذى ساد آنذاك ثم اشتدت وطأته فى عصور الانحطاط حتى قضى على الروح العفوية فى الشعر .

نقول هذا ونحن نعلم أن بعض الفحول فى هذه الفترة قد استطاعوا أن يضيفوا

إلى أوصافهم المادية للطبيعة حسًّا وذوقاً جعلهم يأتلفون معها ويستغرقون فى نشوة جمالها ويبادلونها العاطفة بعاطفة والحب بحب .

فهذا أبو تمام والبحترى وابن الرومى يقدمون لنا عن الطبيعة صوراً ذات نشاط وحياة ومباهج فاتنة . فلنسمع ابن الرومى يصف غروب الشمس وصفاً تتراءى فيه المشاركة الوجدانية على شكل لم يسبق إليه فيقول :

وقد رَنَّقَتْ شمسُ الأَصيل ونَفَّضَتْ
على الأُفُقِ الغربىِّ وَرْساً مُزَعْزَعا[١]
وَوَدَّعَت الدنيا لتقضىَ نَحْبها وشوَّل باقى عمرِها فَتَشَعْشَعا[٢]
ولا حَظَت النُّوارَ وهْى مريضةٌ
وقد وضعتْ خَدًّا إلى الأَرض أَضْرَعا[٣]
كمالاحظتْ عوَّادَه عينُ مُدْنَفٍ تَوَجَّعَ من أَوْصابِه ما تَوَجَّعا[٤]
وظَلَّتْ عيونُ الروض تخضلُّ بالنَّدَى
كما اغرورقَتْ عينُ الشجىِّ لِتَدْمَعا
يُراعِينَها صُورًا إليها رَوَانِيًا ويَلْحَظْنَ أَلحاظاً من الشجو خُشَّعا[٥]
وبيَّنَ إغضاءُ الفِراق عليهما كأَنهما خِلاَّ صفاءٍ تودَّعا

---

(١) الورس : نبات أصفر . مزعزعاً : متحرك .
(٢) شول : نقص حتى كاد ينتهى .
(٣) أضرع صفة مشبهة بمعنى ضارع : ذليل .
(٤) المدنف : المريض .
(٥) الصور : ج صوراء وهى المائلة العنق .

وقد ضَرَبَتْ فى خُضْرة الروضِ صُفرةٌ
من الشمس فاخضرَّ اخضراراً مُشَعْشَعا
وأَذْكَى نسيمَ الرَّوضِ ريعانُ ظِلِّهِ
وغنَّى مغنِّى الطيرِ فيه وسَجَّعا [١]

وهذا ابن المعتز نراه تستهويه الصورة فيأتى شعره فى الطبيعة آية على إرهاف حاسة البصر وحسن استقباله للألوان والأصباغ ودقة إخراجه للصور والأشكال كقوله يصور احتجاب الشمس وراء السحب :

كأَنَّ الشمسَ يومَ الغيمِ لحظٌ مريضٌ مدنفٌ من خَلْفِ سِتْرِ

وقوله يصف الهلال وصفاً فيه بهاء الصورة وترفها :

انظرْ إلى حُسْنِ هلالٍ بَدَا يَهْتِكُ من أَنواره الحِنْدِسا
كَمِنْجَلٍ قد صِيغَ من فِضةٍ يَحْصد من زَهْر الدُّجَى نَرْجِسا

ويستوقفنا فى القرن الرابع الهجرى شاعر عبقرى هو أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبرى وقد اجتمعت لديه أكثر مقومات شاعر الطبيعة وكان من هذه الكوكبة من شعراء الوصف الذين عاصروا المتنبى فطغت عليهم شهرته العظيمة . لقد كان الصنوبرى شاعر الروض والزهر وقد صدر فى شعره عن شعوره الصادق نحو الطبيعة .

تلك هى أسماء فى سماء الشعر العربى ترسم لنا الشكل الذى قيل فيه شعر الطبيعة فى المشرق أتينا بها كمدخل لبحثنا ، فما هى حال شعر الطبيعة فى الأندلس ، وما هى الدواعى التى جعلت هذا الشعر يزدهر فى تلك الأرض الأندلسية الحبيبة .

---

(١) أذكى : عطر ونشر الرائحة الجميلة . ريعان الشباب : نضرته ، وريعان الظل : امتداده وكونه وارفاً .

بواعث شعر الطبيعة فى الأَندلس وخصائصه الهامة

منح الله الأندلس طبيعة فاتنة فكانت أغنى بقاع المسلمين منظراً وأوفرها جمالا . ترتفع فيها الجبال الخضراء وتمتد فى بطاحها السهول الواسعة وتجرى فيها الجداول والأنهار وتغرد على أفنان أشجارها العنادل والأطيار وتنساب الماشية والأنعام فى مراعيها الجميلة ويعمل الفلاحون فى حقولها الخضراء ويعطر النسيم جوَّها المعتدل وبساتينها المشرقة . وقد تحدث عن جمالها كلٌّ من حلها . وأفاض المقرى فى وصف طبيعتها الفتانة وجنانها البهيجة وانتهى إلى أن « محاسن الأندلس لا تستوفى بعبارة ، ومجارى فضلها لا يشق غباره » .

وقد كان من أثر جمال الأندلس أن شغفت بها القلوب وهامت بها النفوس ، فتعلق بها الأندلسيون جميعاً وأقبلوا يسرِّحون النظر فى خمائلها ويستمتعون بمفاتنها ما شاء لهم الاستمتاع . وأخذ الشعراء والكتاب ينظمون كلمهم درراً فى وصف رياضها ومباهج جنانها بعد أن فتحت فى نفوسهم قول الشعر وجعلتهم يرون فيها — كما يقول ابن خفاجة — جنة الخلد بمائها وظلها وأنهارها وأشجارها :

يا أَهلَ أَندلسٍ لله دَرُّكُمُ ماءٌ وظلٌّ وأَنهارٌ وأَشجارُ
ما جنةُ الخُلْد إلا فى دياركُمُ ولو تخيَّرتُ هذا كنتُ أَختار
لاتختَشُوابعدَهاأَن تدخلوا سَقَرًا فليس تُدخَلُ بعدَ الجنةِالنار

وقد ملكت معانى هذا الجمال نفوسهم واستحثت قرائح الشعراء فيهم وغذتها أفضل غذاء ، وكان يكفى أن تهب على ساكن هذه الجنة نفحة من نسيم عليل ليصيح مع شاعرها ابن خفاجة :

إِنَّ للجنةِ فى الأَندلس مُجْتَلَى حُسنٍ وَرَيًّا نَفَسِ

فَسَنَا صُبْحَتِهَا من شَنَبٍ ودُجَى ظُلْمَتِهَا مِنْ لَعَس
فإذا ماهَبَّت الريحُ صَباً صِحْتُ :واشَوْقى إلى الأَندلس!

ولم يكن جمال الطبيعة فى الأندلس هو وحده الذى ساعد على ازدهار شعر الطبيعة فيها ، بل إن الحياة اللاهية نفسها التى أشرنا إليها والتى عاشها الشعراء كانت سبيلا لهذا الازدهار ، إذ كانت الطبيعة مسرح حياة الشاعر اللاهية ، وفى أحضانها استسلم للهوه وحبه وخمره ، وعكف يصور هذا اللهو وهذا الحب وهذا الخمر فى إطار الطبيعة مقدماً لنا لوحات فيها العبير والأصباغ والألوان .

فما هى تلك الخصائص التى امتاز بها شعر الطبيعة فى الأندلس ؟

١ — هو شعر يمثل تعلق الشعراء الأندلسيين ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات ، بعد أن كان هواهم متعلقاً بصور الجزيرة العربية . وقد رأينا كيف أن ابن خفاجة يتعلق بالأندلس ويراها جنة الخلد ، ويرى أن كل ما فيها جميل مطرب ، ولابن زيدون وابن حمديس ولغيرهما من الشعراء مثل هذا التعلق . وهذا الحب كما رأينا فيما تقدم .

٢ — هو شعر يصف طبيعة الأندلس الطبيعية والصناعية ، فشعراء الطبيعة يصفونها كما أبدعها الله فى الحقول والرياض والأنهار والجبال والسماء والنجوم ، ويصفونها كما صورها الفن مجلوة فى القصور والمساجد والبرك والأحواض فيكمل تذوقهم لجمال الطبيعة وتتضح ألوانها وأشكالها أمام نواظرهم فيزدادون لها حبًّا وبها تعلقاً ؛ وهم كذلك قد أتوا على أوصاف جديدة للطبيعة الحية كما فعل ابن خفاجة فى وصف الفرس والذئب .

٣ — وهو شعر يصف الأقاليم الطبيعية المختلفة لبلاد الأندلس، فكان لبعض الأقاليم شعراؤها الذين اهتموا بوصف ديارهم . فابن زيدون يتغنى بقرطبة وزهرائها . وابن سفر المريتى يصف إشبيلية ، وأبو الحسن بن نزار يتعلق بوادى أشات فيصوره تصويراً ينمُّ عن براعة بما يتركه فى النفس من طراوة الندى والظل والشجر فيقول :

وادى الأَشاتِ يهيجُ وَجْدِى كلما أَذكرت ما أَفضتْ بك النعماءُ
لله ظِلُّك والهجيرُ مسلَّطٌ قد بَرَّدَتْ لَفَحاتِهِ الأَنداءُ
والشمسُ ترغبُ أَن تفوزَ بلحظةٍ منه فَتَطْرِفُ طَرْفَها الأَفياءُ
والنهرُ يبسِمُ بالحَبَابِ كأَنه سَلْخٌ نَضَتْهُ حَيَّةٌ رَقْطاءُ
فلذاكَ تَحْذَرُهُ العيونُ ، فَمَيْلُها أَبدًا على جَنَباتِهِ إِمساءُ

وهكذا كان شعراء الأندلس يعبرون عن مشاهد طبيعية رأوها وعاشوا فى رحابها وأحسوا بجمالها .

٤ — الطبيعة عندهم طروب تبعث جو الطرب ، ووصفها يمثل الجوانب الضاحكة الندية منها ، وأكثر شعرهم فى الطبيعة وصف لمتنزهاتهم ومجالس أنسهم ولهوهم فى أحضانها كما بدا لنا من الأمثلة التى جئنا على ذكرها فيما تقدم .

٥ — وصف الطبيعة عندهم متصل بالغزل والخمر ، وهو طريق إليهما ، ولذا فقد رأينا شعراء الأندلس لا يذكرون الطبيعة إلا فى رحاب الحب بل لا يذكرون الحب إلا فى رحاب الطبيعة ، وهم بهذا يمنحون غزلهم لوناً بهيجاً من الجمال تقدمه الطبيعة التى تضم خلواتهم وتفسح لهم مجال اللهو والشراب ، والأمثلة كثيرة فى شعر ابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة وغيرهم على امتزاج الطبيعة بالغزل والخمر وما يقتضيه هذا الامتزاج من لهو وطرب . فغزل الأندلسيين إذن يهتم ، إلى جانب وصف المحبوب ، بالمكان الذى ضم هذا المحبوب وهو غالباً الطبيعة ، بينما كان الغزل بالمشرق يهتم ، على الغالب ، بالوصف المادى وذكر الحوار واللقاء كما كان يفعل عمر بن أبى ربيعة وشعراء مدرسته ومن جاء بعده .

٦ — المرأة صورة من محاسن الطبيعة ، والطبيعة تجد فى المرأة ظلها وجمالها ، ولذا كانت الحبيبة روضاً وجنة وشمساً ، وقد قال المقرى عن شعراء الأندلس : « إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً ومن النرجس عيوناً ومن الآس أصداغاً

ومن السفرجل نهوداً ومن قصب السكر قدوداً ومن قلوب اللوز وسُرَر التفاح مباسم ومن ابنة العنب رُضاباً »[1]. وهكذا كانت العلاقة شديدة بين جمال المرأة وبين الطبيعة فلا تذكر المرأة إلا وتذكر معها الطبيعة .

٧ — وشعرهم يعنى بتشخيص الطبيعة وتصويرها على نحو إنسانى تملؤه الحركة والنشاط كما فى شعر ابن زيدون وابن خفاجة وغيرهما وكما فعل لسان الدين بن الخطيب فى موشحته التى عارض بها موشحة ابن سهل والتى مطلعها :

جَادَكَ الغيثُ إذا الغيثُ هَمَى يا زمانَ الوصلِ بالأَندلسِ
لم يكنْ وصْلُكَ إلا حُلما فى الكَرَى أو خِلْسةَ المُخْتَلِسِ

فى هذه الموشحة يجلّل الحيا الروض فتبسم ثغور الزهور ، ويتناجى الماء والحصا فيغار الورد ويحمر خفراً ، ويتنبه الآس فيسرق السمع ليفهم سر المناجاة .

والشعر الأندلسى يقدم لنا لوحات أخرى تنم عن امتزاج الشاعر بالطبيعة وصدق عاطفته نحوها وتشخيصه لها حتى أصبحت لسان نجواه وخفقة قلبه .

٨ — وشعر الطبيعة عندهم لا يظهر كغرض مستقل إلا نادراً فى بعض المقطوعات والقصائد ، وقد امتزج فى أكثر الأغراض التى طرقها الشعراء الأندلسيون ، وكان الغزل كما رأينا أكثر هذه الأغراض امتزاجاً بالطبيعة ، إلا أن هذه الثنائية نراها أيضاً فى المدح والرثاء والعتاب والفخر ، فهذا ابن زيدون يصف خلائق أبى الوليد بن جهور بالروض الضاحك . فيقول :

للجَهْوَرِىِّ أَبى الوليدِ خَلائقٌ كالرَّوْضِ أَضْحَكَهُ الغمامُ الباكى

وكذلك يمدح المعتمد على نعمه فيراها جنة يضل فيها القريض :

أَورَثَتْنِى نُعْماكَ جنةَ عَدْنٍ جَالَ فى وصفها فَضَلَّ القريضُ

---

(١) المقرى ١/٣٢٣ .

ثم يعاتب ابن زيدون صاحبه أبا حفص بن بُرْد ويطلب منه أن يكون مثله دائم الوفاء فينظر إلى الطبيعة فيرى فى الآس وديمومة اخضراره ما يريد أن يعبر عنه :

لا يكنْ عهدُك وَرْدًا إنَّ عهدى لكَ آسُ

وهكذا فذكر الطبيعة يمنح هذه الأعراض صفة أندلسية تتجلى فى اقتناص المعانى من طبيعة الأندلس .

٩ — وقد كان لطبيعة الأندلس وما احتضنت من غزل ولهو وغناء أثر فى اختراع قالب شعرى جديد طبعته الأندلس بطابعها ألا وهو « الموشح » ذلك الفن الشعرى المستحدث الذى غنى طبيعة الأندلس ولهوها وعاش فى نعيم ظلالها وعبق ريحانها .

* * *

هذه جملة المميزات لشعر الطبيعة فى الأندلس ، وقد استطاع شعراؤها أن يصفوها ، فى كثير من الحالات ، من خلال نفوسهم ولكنهم نظروا إليها ، على الغالب ، نظرة مصور فبدت لعيونهم كثيرة الأصباغ والألوان وزينوها بصناعة لفظية وخيال بصرى أنيق . ولم يستطيعوا أن يتجردوا من ماضى شعر الطبيعة وإن كانوا قد طبعوه أحياناً بطابعهم وأخضعوه لمقومات بيئتهم . ولئن استطاع بعضهم فى عدد من القصائد أن يصف خلجات نفسه نحوها ، فقد قصروا بصورة عامة عن الاتحاد بها اتحاداً تامًّا على طريقة المفهوم « الرومانتيكى » عند شعراء الغرب .

وهكذا بقى شاعر الطبيعة الأندلسى ، على رغم حسه العميق وحبه للطبيعة ، يصورها ويزخرفها ببصره ويجسمها ويجملها بخياله ، فأجاد الصناعة ولم ينفخ فيها دائماً الروح .

* * *

والخلاصة أن وصف الطبيعة فى الأندلس كان ، على الغالب الأعم ، شغفاً

بمحاسنها وتصويراً حسيًّا لمباهجها ، تموج به ، بين حين وآخر ، خفقة من حياة ودفقة من عاطفة صادقة .

وإننا لواجدون فى المنتخبات الشعرية الآتية بعض هذه الخصائص التى أتينا على ذكرها .

* * *

منتخبات

من شعر الطبيعة فى الأندلس

من شعر ابن حمديس :

قال ابن حمديس يصف الخمر فى ظلال الطبيعة :

نحنُ فى جنةٍ نباكِرُ منها ساحِلَىْ جدولٍ كَسَيفٍ مجردْ
صقلتْ متنَهُ مداوسُ شمسٍ من خلال الغصون صقلاً مُجَدَّد[1]
ومُدام تطير فى الصحن سُكْرًا فَتُحَلُّ العقودُ منها وتُعْقَد
جِسْمها بالبقاءِ فى الدَّنِّ يَبْلَى وقُواها مع الليالى تَجَدَّدْ[2]
وإذا الماءُ غاضَ فى النار منها أُخرِجَ الدرُّ من حبابٍ منضَّدْ
يا لها من عصير أَوَّلِ كرم سَكِرِ الدرُّ منه قِدْماً وعربد
جنة مَجَّت الحَيا إذ سقاها مُصلحٌ من غمامِهِ غيرُ مُفْسِد
قد لبسنا غلائلَ الظلِّ فيها مُعْلَماتٍ من الشُّعاع بِعَسْجَد[3]

---

(١) المداوس : مفردها مدوس ومدواس وهى المصقلة .
(٢) الدن : جمعها دنان وهى راقود الخمر .
(٣) معلمات : مخططات .

ورأينا نارِنْجَها من غصونٍ هزَّت الريحُ خصرَها فهى مُيَّدْ
ككُراتٍ محمرَّةٍ من عقيقٍ تَذَّرِيها صوالجٌ من زبرجد
وكأَنَّ الأَنوارَ فيها ذُبالٌ بسَليطٍ من النَّدى تتوقد[١]
وكأَن النسيم بالفَرْج يُفْشِى بين روضاتها سرائرَ خُرَّد[٢]
حيث نُسْقى من السرور كؤوساً ونُغَنَّى من الطيور ونُنْشَدْ
ذو صفيرٍ مُرَجَّعٍ أو هديلٍ أَسَمِعْتُم عن الغَرِيض ومَعْبَدْ ؟
شادياتٌ تُمسِى الغصون وتُضْحِى رُكعاً للصَّبا بهنَّ وسُجَّدْ
كان ذا والزمانُ سمحُ السجايا بِبواد من الأَمانى وعُوَّدْ
والصِّبا فى معاطِفِى وكأَنى غُصُنٌ فى يد الصَّبا يتأَوَّدْ[٣]

قال ابن حمديس يصف الليل والثريا والسها وطلوع الفجر وشروق الشمس ، فى مقطوعة مطلعها :

وليلٍ رَسَبْنا فى عُبابِ ظَلامه إلى أَن طَفَا للصبح فى أُفْقه نجمُ
كأَن الثريا فيه سبْعُ جواهرٍ فواصلها جَزْعٌ به فُصِّلَ النَّظْمُ[٤]
وتحسَبها من عَسْكر الشُّهْب سُرْبَةً
عمائمهم بيضٌ وخيلُهُمُ دُهْمُ[٥]

---

(١) الذبال : مفردها ذبالة وهى الفتيلة . السليط : الزيت .
(٢) فرج الوادى : بطنه . الخرد مفردها خريدة وهى الحيية الطويلة السكوت .
(٣) يتأود : يتمايل .
(٤) الجزع : خرز فيه سواد وبياض واحدته جزعة .
(٥) السربة : القطعة من خيل وقطا وظباء .

كأَن السُّهى مُضْنًى أَتاه بنعشِهِ
بنوه وظنُّوا أَن موتَتَهُ حَتْمُ[١]

كأَن انصداعَ الفجر نارٌ يُرى لها وراءَ حجابٍ حالكٍ نَفَسٌ يَسْمو
وتحسَبه طفلاً من الروم طرَّقَتْ به من بنات الزِّنج نائبةً أُمُّ
أَأَعْلِمَ فى أَحشائها أَن عُمْرَهُ — لدى وَضْعِهِ — يومٌ؟ فَشَيَّبَهُ الهَمُّ
ودَرَّتْ لنا شمْسُ النهار مذيبةً على الأَرض روحاً فى السماء له جسمُ

نزح ابن حمديس عن صقلية إلى إفريقية سنة ٤٧١ هـ وهو فى سن الحداثة وصحب العرب هناك ، فقال هذه الأبيات التى تصور تشوقه للطبيعة وهوائها وتصف ترحاله وتغربه فى فيافيها :

إنى لأَبسُطُ للقَبول إذا سَرَتْ خَدّى وأَلقاها بتقبيل اليدِ[٢]
وأَضُمُّ أَجنابى على أَنفاسِها كيما تبرِّد حرَّ قَلبٍ مُكْمَدِ
مسحتْ كراقيةٍ علىَّ بكفها ونِقابُها نِدٌّ من الزهر الندِى[٣]
وعَرَفْتُ فى الأَرواح مسراها كما عرف المريضُ طبيبه فى العُوَّدِ
ما لى أُطيلُ إلى الديار تغرباً أَفبا لتَّغربِ كان طالعُ مَوْلدى
أَبدًا أُبدِّدُ بالنوى عزمى إلى أَملٍ بأَطراف البلاد مُبَدَّد[٤]

---

(١) السها : نجم خفى من بنات نعش الصغرى .
(٢) القبول : ريح الصبا وتقابلها الدبور .
(٣) الراقية : التى تقوم بالرقية . ند : المثل والنظير .
(٤) النوى : البعد .

كم من فلاة جُبتها بنجيبةٍ عن مَنْسمٍ دام وخَطْم مُزْبِد[١]
أَبْقَى الجزيلُ لها جميلَ ثنائه فى العِيس مَوْصولاً بِقَطْع الفَدْفَد[٢]
ضربت مع الإعناق أعناقَ الفَلا بحسامِ ماءٍ فى حَشاها مُغْمَد[٣]

قال ابن حمديس من قصيدة يصف فيها مظاهر الطبيعة :

نَثَر الجوُّ على الأَرض بَرَدْ أَىُّ دُرٍّ لنُحورٍ لو جَمَدْ
لؤلؤٌ أَصدافُه السحبُ التى أَنجزَ البارقُ منها ما وَعَدْ
آرَقَ الأَجفانَ رعدٌ صوتُهُ كهدير القَرْم فى الشوْل حَفَدْ[٤]
بات يجتاح بإبكار الحيَا بلدًا يرويه من بعدِ بَلَدْ
وكأَن البرق فيها حاذف بِضرامٍ كلما شُبَّ خَمَدْ
تارةً يبدو وَيَخْفَى تارةً كحسامٍ كلما سُلَّ غُمِدْ
يَذْعَرُ الأَبصار محمرًّا كما قَلَّبَ الحملاقَ فى الليل الأَسدْ[٥]
وعليلُ النبت ظمآنُ الثرى عَرَّجَ الرائدُ عنه فَزَهِدْ
خلَع الخِصبُ عليه حُلَلاً لبديع الرَّقْم فيهن جَدَدْ[٦]
وسقاه الرِّىُّ من وَكَّافةٍ فتح البرقُ بها الليلَ وَسَدْ[٧]

---

(١) النجيبة : الناقة . المنسم : طرف خف الناقة . الخطم : مقدم فم الدابة .
(٢) العيس : الإبل . الفدفد : الفلاة .
(٣) الإعناق : السير الواسع الفسيح .
(٤) القرم : من الجمال ما لم يمسه حبل . حفد : أسرع .
(٥) حملاق العين : باطن أجفانها .
(٦) الرقم : الوشى .
(٧) الوكافة : سحابة كثيرة المطر .

ذاتِ قَطْرٍ داخلٍ جَوْف الثرى
كحياةِ الرُّوح فى موت الجسد
فَتَثَنَّى الغصنُ سكرًا بالنَّدى وتغنَّى ساجعُ الطير غَرِدْ
وكأَن الصبحَ كفٌّ حَلَّلَتْ من ظلام الليل بالنُّور عُقَدْ
وكأَن الشمسَ تجرِى ذهباً طائرًا فى صيدِهِ من كلِّ يد

قال ابن حمديس يصف غديراً شقه نهر :

وزرقاءَ فى لونِ السماء تَنَبَّهَتْ لِتَحْبُكَها ريحٌ تَهُبُّ مع الفجر
يَشُقُّ حشاها جدولٌ متكَفِّلٌ بِسَقْى رياضٍ أُلبستْ حُلَلَ الزهر
كماطَعَنَ المقدامُ فى الحرب دارعاً بِعَضْبٍ فَشَقَّ الخصرَ منه إلى الخصر
يُريك رؤوساً منه فى جسمِ حَيَّةٍ سَعَتْ من حياةٍ فى حدائقه الخضْر
فلا روضةٌ إلا استعارتْ لشُكْرِهِ لسانَ صَباً تسرى مطيَّبَةَ النَّشر

من شعر ابن خفاجة

وصف الجبل :

قال ابن خفاجة يصف الجبل وهى من درر قصائده التى تمثل امتزاج الشاعر بالطبيعة :

بعيشِكَ هل تَدْرى أَهُوجُ الجنائب
تَخُبُّ برحلى أَم ظُهورُ النجائب؟[١]

(١) هوج الجنائب : رياح الجنوب الهوجاء . النجائب : مفردها نجيبة وهى الناقة الكريمة .

فما لُحْتُ فى أُولى المشارق كوكباً
فأَشْرفتُ حتى جئتُ أُخرى المغارب

وحيدًا تهادانى الفيافى فأَجتلى وجوهَ المنايا فى قِناع الغياهب[١]
ولا جارَ إلا من حُسَامٍ مُصمِّمٍ ولا دارَ إلا من قُتُودِ الركائب[٢]
ولا أُنْسَ إلا أَن أُضاحك ساعةً
ثغورَ الأَمانى فى وجوهِ المطالب

وليل إذا ماقلتُ قد بادَ فانقضى
تكشَّفَ عن وعدٍ من الظنِّ كاذب

سحبتُ الدَّياجى فيه سودَ ذوائبٍ
لأَعتنقَ الآمال بيضَ ترائب[٣]

فمزَّقتُ جيبَ الليل عن شَخْص أَطلسٍ
تطلَّعَ وضَّاح المَضَاحِكِ قاطب[٤]

رأَيت به قِطعاً من الفَجْر أَغْبشاً تأَمَّل عن نجم توقَّدَ ثاقب[٥]

---

(١) تهادانى الفيافى : تهدينى واحدة إلى أخرى . أجتلى : أنظر . الغياهب جمع غيهب : الظلمات .
(٢) جار : حام وناصر . المصمم : المضى . القتود جمع قتد : أخشاب الرحل . الركائب جمع ركوبة : النوق .
(٣) الدياجى جمع دجى : الظلمات . الترائب جمع تريبة وهى العظمة فى الصدر .
(٤) الجيب : ما يلى العنق من الثوب . عن شخص أطلس : أى عن شخص أفق أطلس والأطلس الذى فى لونه غبرة إلى سواد ، وهو وضاح المضاحك لأن الصبح بدأ يطلع فيه ، وهو قاطب لأن بقية من الظلام لا تزال فيه .
(٥) قطعاً : جانباً . تأمل : هنا انكشف ويقصد بالنجم فى البيت الزهرة أو عطارد لأنهما يظهران فى الأفق على التناوب عند مطلع الفجر .

* * *

وأَرعنَ طمَّاح الذؤابةِ باذخٍ يُطاول أَعنانَ السماءِ بِغارب (١)
يسُدُّ مهبَّ الريح عن كل وُجهةٍ ويَزحَمُ ليلاً شُهْبَهُ بالمناكب
وقورٌ على ظهر الفلاةِ كأَنه طَوالَ الليالى مُفْكرٌ فى العواقب
يلوثُ عليه الغيم سودَ عمائمٍ لهامن وميض البرقِ حمرُ ذوائب (٢)
أَصَخْتُ إليه وهو أَخرسُ صامتٌ
فحدَّثنى ليل السُّرى بالعجائب (٣)
وقال أَلاكَمْ كنتُ ملجأَ قاتلٍ وموطنَ أَوَّاهٍ تَبَتَّلَ تائب (٤)
وكم مرَّبى من مُدْلج ومُؤوِّبٍ وقال بظلّى من مطىٍّ وراكب (٥)
ولاطَمَ ، من نُكْب الرياح ،معاطفى
وزاحَمَ ، من خُضْر البحار، غَواربى (٦)
فما كان إلا أن طَوَتْهم يدُ الرَّدى وطارت بهم ريحُ النَّوى والنوائب
فما خَفْقُ أَيكى غيرُ رجْفة أَضلعٍ ولانوحُ وُرْقى غيرُ صرخةِ نادب (٧)

---

(١) الأرعن : الجبل الشديد النتوء . الغارب : الظهر .
(٢) يلوث : يعصب ويلف .
(٣) أصخت : أصغيت .
(٤) الأواه : هنا التائب الذى يتأوه من ذنوبه . تبتل : تنسك وانقطع إلى العبادة .
(٥) المدلج : السائر فى الليل . المؤوب : الراجع . قال : نام القيلولة .
(٦) النكب : جمع نكباء وهى الريح الشديدة .
(٧) الأيك جمع أيكة : الشجر الكثيف الملتف . الورق : جمع ورقاء وهى الحمامة .

وما غَيَّضَ السلوانُ دمعى وإنما نزفتُ دُموعى فى فِراقِ الصَّواحب[١]

حتى متى أَبقى ويظعنُ صاحبٌ أُوَدِّع منه راحلاً غيرَ آيب

وحتى متى أَرْعَى الكواكبَ ساهرًا

فمِنْ طالع ، أُخرى الليالى ، وغارب

فَرُحماكَ يامولاى دعوةَ ضارعٍ يمدُّ إلى نُعماك راحةَ راغب[٢]

فأَسْمَعَنى من وعظِهِ كلَّ عِبْرةٍ يُتَرْجمها عنه لسانُ التجاربِ

فسَلَّى بما أَبكى وسَرَّى بما شَجَا

وكان ، على عَهدِ السُّرى ، خيرَ صاحب[٣]

وقلت ،وقد نكَّبتُ عنه لِطِيَّةٍ : سلامٌ فإنا مِنْ مُقيم وذاهبِ[٤]

وصف الليل :

قال ابن خفاجة فى إحدى قصائده :

وليلٍ كما مدَّ الغراب جَناحَه وسالَ على وجه السِّجِل مدادُ

به من وميض البرق ، والليل فُحمةٌ شرارٌ ترامَى والغمامُ زِناد

سريتُ به أُحْيِيه ،لاحيَّةُ السُّرى تموت ولامَيْتُ الصباح يُعادُ[٥]

---

(١) غيض : غور ، جعله ينضب .
(٢) البيت من كلام الجبل ومولاه هو الله .
(٣) سرى : بدد الحزن وأبعد الهموم . شجا : أحزن .
(٤) الطية : الحاجة والقصد ووجهة المسافر ، وهنا بمعنى السفر .
(٥) يعاد : يزار .

يقلب منى العزمُ إنسانَ مُقْلةٍ لها الأُفْقَ جفْنٌ والظلام سواد
بخَرقٍ لقلبِ البرق خفقةُ روعةٍ به ، ولجفن النجم فيه سهاد[١]
سحيقٍ ولا غيرَ الرياح ركائبٌ هناك ولا غيرَ الغمام مَزادُ[٢]
كأَنى وأَحشاءُ البلادِ تُجِنُّنى سريرةُ حبٍّ والظلامُ فؤاد[٣]
أَجوب جيوبَ البِيد والصبح صارمٌ له الليلُ غِمْدٌ والمَجَرُّ نِجاد
وفى مُصطَلى الآفاقِ جَمْر كواكبٍ
عَلاها من الفَجْر المُطلِّ رَماد
ولمَّا تَعَرَّى من دُجى الليل طِحْلِبٌ
وأَعْرَضَ من ماءِ الصباح ثِماد[٤]
حننتُ وقد ناحَ الحمامُ صبابةً وشُقَّ من الليل البهيم حِداد
على حينَ شطَّت بالحبائبِ نِيَّةٌ وحالت فيافٍ بيننا وبلاد[٥]

وصف متنزه :

قال ابن خفاجة :

ومَجَرٍّ ذيلِ غمامةٍ قد نمَّقت وَشْيَ الربيع به يدُ الأَنواء[٦]

---

(١) الخرق : القفر .
(٢) سحيق : بعيد . المزاد : واحدتها مزادة ، وهى جلود يضم بعضها إلى بعض ويوضع فيها الماء .
(٣) تجنى : تستر .
(٤) تعرى : انشق . الثماد : الماء القليل .
(٥) شطت : بعدت . النية : الرحلة البعيدة . الفيافى : القفار واحدتها فيفاء .
(٦) نمقت : زينت . الوشى : النقش بالألوان .

أَلقيتُ أَرحُلَنا هناك بقبَّةٍ مضروبةٍ من سَرْحةٍ غَنَّاء[١]
وقسمتُ طَرْفَ العينِ بينَ رَباوةٍ مخضرةٍ وقَرارةٍ زرقاء[٢]
وشربْتُها عذراءَ تحسَب أَنها معصورةٌ من وَجْنَتَىْ عذراء[٣]
حمراءُ صافيةٌ تطيب بنفسها وغنائها وخلائقِ النُّدَماء[٤]
خُذْها كما طَلَعَتْ عليك عرارةٌ مُفترَّةٌ عن لؤلؤٍ الأَنداء[٤]

قال ابن خفاجة يصف سرحة على نهر :

وسَرحةٍ خاض منها ظلُّها نهرًا أَوْفَتْ عليه فلم تَنقُص ولم تَزِدِ[٥]
كما تدانيتَ من ثغر لمرتشِف ثم انثنيتَ فلم تَصْدُر ولم تَرِدِ
كأَن أَفنانها طيباً ، حِمَى مَلِكٍ أَغْضَى وأَعطَى فلم يُوعِد ولم يعدِ[٦]

وقال يصف سحابة تمشى على الظلماء :

وغمامةٍ لم يستقلَّ بها السُّرى فمشت على الظلماءِ مَشْىَ مقيَّد
حَمَلَتْ بها ريحُ القَبول سحابةً سحَّابَةَ الْأَذيالِ تُلْمَس باليد
فى ليلة قد بات يلحس تحتهَا حِبرًا لسانُ البارق المتوقِّد[٧]

---

(١) السرحة : الشجرة الطويلة . الغناء : الكثيرة الأغصان .
(٢) الرباوة : المرتفع . القرارة : المكان المطمئن .
(٣) شربتها عذراء : أى خمرة بكراً غير ممزوجة .
(٤) العرارة ، واحدة العرار : بهار ، أى نبت طيب الرائحة ناعم أصفر . مفترة : مبتسمة .
(٥) أوفت : أشرفت .
(٦) أغضى : سكت .
(٧) شبه شدة الظلام بالحبر يلحسه لسان البرق .

نَسَجَ الضريبُ بها الظلامَ حمامةً فابيضَّ كلُّ غرابِ ليل أَسود[١]
شابت وراءَ قِناعها لِمَمُ الرُّبى واشمطَّ مَفْرِقُ كلِّ عَضْبٍ أَمْلَد[٢]

حديث كالنسيم :

قال ابن خفاجة فى إحدى قصائده :

وليلٍ تعاطَيْنا المدامَ وبيننا حديثٌ كماهبَّ النسيمُ على الوَرْد
نعاودُه والكأْسُ يَعْبَقُ نفحةً وأَطيبُ منه ما نُعيد وما نُبْدِى
ونَقْلى أَقاحُ الثغر أو سَوْسنُ الطُّلى
ونرجسةُ الأَجفانِ أو وردة الخد[٣]
إلى أَن سرت فى جسمه الكأْسُ والكرى
ومالا بعطفيه فمالَ على عَضْدى
فأَقبلتُ أَستهدى، لما بين أَضلعى من الحرِّ، ما بين الضلوع من البَرد

* * *

وأكثر مطالع مدائح ابن خفاجة أبيات فى وصف الطبيعة يمازجها الغزل ، وإليك ، بعد مقدمة غزلية ، هذه الأبيات التى يصف بها الطبيعة من قصيدة يمدح بها الأمير أبا يحيى بن إبراهيم :

ومجرِّ ذيل غمامةٍ لبستْ به وشىَ الحَباب مَعَاطفُ الأَنهار

---

(١) الضريب : الثلج .
(٢) أراد بالعضب الغصن . الأملد : الناعم .
(٣) النقل : ما يتنقل به على الشراب من فستق وتفاح ونحوهما .

خَفَقَتْ ظِلالُ الأَيكِ فيه ذوائباً وارتجَّ رِدفاً مائجُ التَّيار
ولوَى القضيبُ هناك جِيدًا أَتلعاً قَدْ قَبَّلتْهُ مباسمُ النُّوار
باكَرْتُه والغيمُ قِطْعَةُ عنبرٍ مشبوبةٌ والبرق لفحةُ نار
والرِّيحُ تَلْطِمُ فيه أَردافَ الرُّبى لَعِباً وتلثُمُ أَوجُهَ الأَزهار
ومنابرُ الأَشجارِ قد قامت بها خطباءُ مُفْصِحةٌ من الأَطيار

وكان ابن خفاجة يمهد لمدائحه بغزل رقيق فيه صنعة العبقرى ، ثم يقف عند مظهر من مظاهر الطبيعة فيصف غمامها أو رياضها إلى أن يقوده المطاف إلى الممدوح ، وقصيدته الرائية فى مدح أبى الحسن بن الربيع صاحب قرطبة تتبع هذه الخطة فلنسمعه وقد اتخذ من الطبيعة طريقاً لمدح الممدوح قال :

وغمامة نَشَرتْ جناحَ حَمامةٍ والبرقُ قد نَسَجَ الظلام نَهَارا
متألِّقٌ صدَعَ الدجى وسَقَى الثرى فابيضَّ ذا نَورًا وذا أَنْوارا
فى أَجرعٍ خَلَفَ الربيع به ابنَه كرَماً فأَخصب ربوةً وقَرارا[1]
هفتِ الصَّبا منه بمسرى ديمةٍ هطلاءَ قرَّ بِها العَجاج وقارا
وكفَتْ فسالتْ فضةً ولربما طبَعت بكل قرارةٍ دينارا
أَرضٌ هبطتُ بها سماءً طلقةً وخبطتُ من سَدَفٍ بها أَنوارا
عاطيتُ ذكرَ أَبى الحسين بها السُّرى
ريحانة يَشْتَمُّها مِعطارا

(١) لعله أراد بابن الربيع المطر ، وذلك بدليل قوله فأخصب .

وسلافَةً خَفَّتْ بنا طرباً لها واسترقصت من فِتية ومَهارى
عبِثت بها سِنَة الكرى فَتمايَدَت فى ملتقى أسحارها أسجارا

قال ابن خفاجة يصف الطبيعة فى جو من الخمر :

احْسُ المُدامة والنسيم عليلُ والظل خفَّاقُ الرواق ظليلُ[١]
والنَّوْر طَرِفٌ قد تنَبَّه دامعٌ والماءُ مُبْتَسِمٌ يروقُ صقيل
وتطلَّعتْ من برق كل غمامةٍ فى كل أُفق راية ورعيل[٢]
حتى تَهادَى كل خوطةِ أَيكةٍ رَيَّا وغصَّت تَلْعةٌ ومسيل[٣]
عَطَفَ الأَراكةَ فانثنت شكرًا له
طَرَباً ورَجَّع فى الغصونِ هَديل[٤]
فالروضُ مهتزّ المعاطف نِعمةً نشوانُ يعطِفه الصَّبا فيميل
ريَّان فضَّضَهُ الندى ثم انجلى عنه فَذَهَّبَ صفحتيه أَصيل
وارتدَّ ينظر فى نقاب غمامةٍ طَرْفٌ يمرِّضُهُ النعاسُ كليل[٥]
ساجٍ كما يرنو إلى عُوَّاده شاكٍ ويلتمح العزيزَ ذليل

---

(١) الرواق : مقدم البيت ، وقد شبه الظل ببيت مضروب يخفق هواء رواقه .
(٢) الرعيل : الجماعة من الخيل ، شبه السحب بجماعات الخيل وكتائبها فى الحرب ، وشبه البروق المنبعثة منها بالرايات الحمر المنشرة فوق رؤوسهم .
(٣) كل خوطة : كل غصن . الأيكة : الشجر الملتف . التلعة : مجرى الماء من الجبل إلى الوادى .
(٤) عطف الأراكة : أى عطف النسيم الأراكة .
(٥) طرف : أى طرف كل شارب منا . فبعد أن كان ينظر إلى الأزهار فى النهار ارتد ينظر فى غمامة كأنها النقاب ، وهذا الطرف كليل من السكر .

قال ابن خفاجة يحن إلى حبه فى ظلال الطبيعة :

لكَ اللهُ من برقٍ تراءى فسلّما
وصافح رسماً ، بالعُذَيب ، ومَعْلَما[١]

إذاماتجاذَبْنا الحديثَ على السُّرى بكيتُ على حُكْم الهوى وتبسَّما
ولم أَعتَنِق برقَ الغمام ، وإنما وضعتُ على قلبى يدىَّ تَأَلُّما
وما شاقنى إلاَّ حفيف أَراكة وسجعُ حَمامٍ بالغُمَيم تَرَنَّما[٢]
وسرحةُ وادٍ هزَّها الشوقُ لا الصَّبا
وقد صَدَحَ العُصْفور فجرًا ، فَهَيْنَما[٣]

أَطفتُ بها أَشكو إليها وتشتكى
وقد ترجمَ المُكَّاءُ عنها ، فأَفهما[٤]

تحنّ ودمع الشوق يسجُم والندى وقرَّ بعينى أَن تحنَّ ويسجُما
وحسبك من صبٍّ بكى وحمامةٍ فلم يدرِ شوقاً أَيّما الصبُّ منهما
ولما تراءَتْ لى أَثافىُّ منزلٍ أَرَتْنى مُحيَّا ذلك الربع أَهْيما[٥]
ترنَّح بى لَذْعٌ من الشوق موجعٌ
نسيتُ له الصبرَ الجميلَ تألما

---

(١) العذيب : موضع . معلم الشىء : معهده ، ومنه معالم الطريق عكس مجاهلها .
(٢) الغميم : واد فى بلاد العرب .
(٣) السرحة : الشجرة العظيمة .
(٤) المكاء : طائر سمى هكذا لأنه يمكو أى يصفر .
(٥) الأثافى : حجارة الموقد . الأهيم : المظلم .

فأسلمتُ قلباً باتَ يهفو به الهوى وقلتُ لدمع العين أنجِدْ فأتْهما
وخلَّيتُ دمعى والجفونَ هنيهةً فأفصحَ سِرٌّ ما فَغَرْتُ به فما
وعُجت المطايا حيث هاج بىَ الهوى
فحييتُ ما بين الكثيب إلى الحِمى[١]
وقبلتُ رسمَ الدار حبًّا لأهلها ومن لم يَجِدْ إلا صعيدًا تيمَّمَا
وحنَّت ركابى والهَوى يبعثُ الهوى
فلم أرَ فى تَيماءَ إلا متيما[٢]
فها أنا والظلماءُ والعِيسُ صحبةٌ
ترامى بنا أيدى النَّوَى كلَّ مُرتمى
أُراعى نجومَ الليل حباً لبدْرِهِ ولستُ كما ظَنَّ الخلىُّ مُنجِّما
وما راعنى إلا تبسُّمُ شيبةٍ نَكَرتُ لها وجهَ الفتاة تجهُّما
فعِفتُ غُراباً يصدع الشملَ أبيضاً
وكان على عهد الشبيبة أسحما[٣]
فآه طويلاً ثم آه لِكَبْرَةٍ بَكَيْتُ على عهد الشباب بها دَما

قال ابن خفاجة يصف فرساً كريماً ويذكر الطبيعة :

تخيرتُه من رهط أعوجَ سابحاً أغرَّ كريمَ الوالدين نجيبا[٤]

---

(١) عجت المطايا : عطفتها .
(٢) تيماء : موضع فى بلاد العرب .
(٣) عفت : زجرت . شبه شيبة بغراب أبيض يفرق الشمل ، وكان فى شبابه أسود .
(٤) رهط : جماعة . أعوج : فرس كريم تنسب إليه الخيول العتاق . السابح : السريع . النجيب : النفيس فى نوعه .

خفيفاً ولم يحلُم بسوط. كأنما يفوت عدُوًّا أو يؤمُّ حبيبا[١]
سرى وانتمى برقٌ بذى الأَثْل ليلةً فبات بها هذا لذاك نسيبا[٢]
وحنّ إلى سَفْر فطار إلى السُّرى يخوضُ خليجاً أو يجوب كثيبا
يؤم بها أرضاً علىَّ كريمةً ومرتبعاً فيها إلىّ حبيبا
ونهرًا كما ابيضَّ المقبَّلُ سَلْسلاً وجِزعاً كما اخضرَّ العِذار خصيبا[٣]
ورب نسيمٍ مرَّ بى وهو عاطر رقيقُ الحواشى لا يُحَسُّ دبيبا
وجدتُ به من ذلك الماءَ بَلَّةً ومن نَوْر هاتيك الأباطح طِيبا
فصافحتُ ريْعانَ النسيم تشوقاً إليها ولازمت القضيبَ رطيبا
وقد قَلَّدَ النُّوَّارُ جيدًا لربوةٍ هناك ونحرًا للفضاءِ رحيبا
وأفصحتِ الورقاءُ فى كل تلعةٍ نشيدًا وقد رقَّ النسيمُ نسيبا
وكان على عهد الشباب تغنياً يَشُوقُ أخا وَجْدٍ فعاد نحيبا
دعا لغروبِ الدمع والدارُ غربةٌ فلم أَرَ إلا داعياً ومجيبا[٤]

قال ابن خفاجة من شعره الوجدانى الغزل :

قل للقبيح الفعالِ : يا حَسَنا! ملأْتَ جَفنىَّ ظُلمةً وَسَنا[٥]
قاسَمَنى طرفُكَ الضنى أَفَلا قاسَمَ جفنىَّ ذلك الوَسَنا ؟

---

(١) يفوت : يسبق ، ويغلب عدوه .
(٢) ذى الأثل : موضع فيه شجر الأثل ، وهو شجر عظيم صلب تصنع منه الجفان والقصاع .
(٣) المقبل : الثغر . السلسل : العذب . الجزع : من الوادى حيث يقطع .
(٤) غروب الدمع : مسيل الدمع ، واحدها غرب .
(٥) السنا : الضياء .

إنى وإن كنتُ هضبةً جَلَدًا أهتزُّ للحسن، لوعةً ، غُصُنا[١]
قسوتُ بأْساً ولِنتُ مكرمةً لم أَلتزِم حالةً ولا سَنَنا[٢]
لستُ أُحِب الجمود فى رجُلٍ تحسِبُه من جموده وثنا
لم يَكْحَل السهدُ جفنَه كَلَفاً ولا طوى جسمَه الغرامُ ضنى
فمن عصا داعىَ الهوى فَقَسا وكان جِلدًا من الصفا خَشِنا
فإننى والعفافُ من شِيَمى آبى الدنايا وأَعشقُ الحَسَنا
طَوْرًا منيبٌ وتارةً غَزِلٌ أبكى الخطايا وأَندب الدِّمنا[٣]
إذا اعترت خشيةٌ شكا فبكى أَو انتحت راحة دنا فجنى
كأَننى غصن بانةٍ خضلٌ تثنيه ريح الصَّبا هُنا وهُنا[٤]

أشعار متفرقة :

قال ابن هانئ الأندلسى يصف أيام الربيع :

أَلؤلؤٌ دمعُ هذا الغيثِ أَم نُقَطُ ما كان أَحسنه لو كان يُلتقط.[٥]
أَهدى الربيعُ إلينا روضةً أُنُفاً كما تنفَّس عن كافوره السَّفَطُ.
غمائمٌ فى نواحى الجو عالقةٌ حُفْل تحدَّرَ منها وابل مبِط.[٦]

---

(١) الجلد : بسكون اللام : القوى الشديد . فتح اللام فيه للضرورة .
(٢) السنن : الطريقة .
(٣) المنيب : من أناب إلى الله : رجع إليه وثاب .
(٤) الخضل : الرطب الندى .
(٥) الروضة الأنف : الجديدة التى لم يرعها أحد . السفط : السلة أو وعاء يحفظ فيه النساء الطيب .
(٦) وابل سبط : شديد متدارك .

بين السحاب وبين الريح ملحمةٌ معامعٌ وظبًى فى الجو تختطف[١]
كأنه ساخطٌ يرضى على عجَلٍ فما يدوم رضًى منه ولا سَخَطُ
كأن تهتانها فى كلِّ ناحيةٍ مدٌّ من البحر يعلو ثم ينهبط
وللجديدين من طولٍ ومن قِصَرٍ حبلان منقبضٌ عنا ومنبسط[٢]
والأرض تبسُط منها فى الثرى وَرَقاً كما تنَشَّر فى حافاتها البُسُط
والريح تبعث أنفاساً معطَّرةً مثلَ العبير بماءِ الورد مختلِط

فى هذا الوصف يعمد ابن هانئ ، على عادته ، إلى طرافة التشبيهات ويقدم لنا صورة حية للطبيعة بما فيها من عوارض الغيث ومعركة السحاب والريح ، وشعره فى وصف الطبيعة لا يجعل منه شاعراً فذًّا فى هذا الغرض لأن عبقريته تبدو فى الأغراض التقليدية كالمدح والوصف والحكمة . وهو فى جميع هذه الأغراض يبحث عن المعانى التى تساعده على تصوير ما يريد من الأخيلة فى أسلوب يعتمد المبالغة والصنعة والكلمات الطنانة .

قال بعض الأندلسيين يصف بركة عليها عدة فوارات :

غَضِبَتْ مجاريها فأظهر غيظُها ما فى حشاها من خَفِيٍّ مُضْمَر
وكأن نبعَ الماءِ من جَنباتها والعينُ تنظر منه أحسنَ منظَر
قُضُبٌ من البلَّور أثمر فرعُها لما انتهت باللؤلؤ المتحدِّر

(١) تختطف : تسل وتجرد من أغمادها ، والظبى جمع ظبة وهى طرف السيف .
(٢) يريد أن الليل والنهار يطول أحدهما فيقصر الآخر كأنهما حبلان أحدهما منقبض والآخر منبسط .

قال ابن صارة الأندلسى يصف ماء بالرقة والصفاء :

والنهر قد رقَّتْ غِلالةُ خصره وعليه من صِبْغ الأَصيل طِراز
تترقرق الأَمواج فيه كأَنها عُكَنُ الخصور تَهُزُّها الأَعجاز

قال بعض أدباء الأندلس :

والنهرُ مكسوٌّ غِلالةَ فضةٍ فإذا جرى سيلاً فثوب نُضارِ
وإذا استقام رأَيت صفحَةَ مُنصلٍ وإذا استدار رأَيت عطفَ سوارِ

قال أبو القاسم بن العطار أحد أدباء إشبيلية يصف نهراً :

عبرنا سماءَ النهر والجوِ مُشْرِقٌ وليس لنا إلا الحَبابَ نجومُ
وقد أَلْبَسَتْه الأَيكُ بردَ ظلالها وللشمس فى تلك البرود رقُوم

وله :

لله بهجةُ مَنزَهٍ ضَرَبتْ به فوقَ الغدير رُواقَها الأَنسامُ
فمع الأَصيل النهرُ درعٌ سابغ ومع الضحى يلتاحُ منه حُسام

وله :

ماكالعشيَّةِ فى رُواءِ جمالها وبلوغ نفسى منتَهَى آمالها
ما شئت شمس الأَرض مشرقةُ السَّنى
والشمسُ قد شدَّتْ مطىَّ رحالها
فى حيث تنساب المياه أَراقماً وتعيرك الأَفياء بُرْدَ ظلالها

وله :

لله حُسْنُ حديقةٍ بَسَطَت لنا منها النفوسَ سوالفٌ ومعاطفُ
تختال فى حُلل الربيع وحَلْيِهِ ومن الربيع قلائد ومطارفُ

قال الأديب أبو عمر أحمد بن فرح الحيانى :

للروض حُسنٌ فَقِفْ عليه واصرف عِنان الهوى إليه
أما ترى نرجساً نضيراً يرنو إليه بمقلتيه

قال الأديب الأسعد بن بليطة :

لو كنت شاهِدَنا عشيةَ أَمْسِنا والمُزْنُ يبكينا بعينىْ مذنب
والشمسُ قد مَدَّتْ أديم شعاعها فى الأَرض تَجنَح غيرَ أَن لم تغرب

قال الحاجب ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن رزين :

وروضٍ كساه الطَّلّ وشياً مجدّدا فأَضحى مقيماً للنفوس ومُقْعِدا
إذا صافحَتْه الريحُ خِلْتَ غصونَه رواقصَ فى خُضْرٍ من العَصْفِ مُيَّدا
إذا ماانسكابَ الماءِ عايَنْتَ خِلْتَه وقد كَسَرَتْه راحةُ الرِّيح مِبْردا
وإن سَكَنَتْ عنه حسِبتَ صفاءَه حُساماً صقيلاً صافىَ المتْنِ جُرِّدا
وَغَنَّتْ به وُرْقُ الحمائم بيننا غناءً يُنَسِّيكَ الغَرِيضَ ومَعْبدا
فلا تجفُوَنَّ الدهرَ ما دام مُسْعِدًا وَمُدَّ إلى ما قدْ حَباك به يدا
وَخُذْها مُداماً من غَزالٍ كأَنه إذا ما سَقَى، بدرٌ تَحَمَّل قَرْقَدَا

قال على بن أحمد أحد شعراء بلنسية :

قُمْ فاسقنى والرياضُ لابسةٌ وَشْياً من النَّوْر حَاكَه القَطْرُ
والشمسُ قد عَصْفَرت غلائلَها والأَرض تندَى ثيابُها الخُضْر
فى مجلسٍ كالسماءِ لاح به مِنْ وجهِ مَنْ قد هَوِيتُه بَدْرُ
والنهرُ مثلُ المجرِّ حفَّ به من النَّدامَى كواكبٌ زُهْر

قال سعيد بن محمد بن العاص المروانى :

والبدر فى جو السماءِ قد انطوى طَرَفاه حتى عاد مثلَ الزَّوْرقِ
فَتَراه من تحتِ المَحاقِ كأَنه غَرِقَ الكثيرُ وبعضُه لم يَغْرَقِ

قال عمر بن يوسف الحنطى :

أَوَميضُ برقٍ أَم سيوفٌ تُبْرِقُ فى عارضٍ أَكنافُه تتأَلقُ
دَعْه إِذا ارتدَّتْ إِليك وجوهُها أَضحتْ وجوهُ الأَرض منها تُشْرِق
ترمى بأَجفانِ الوميض كما انثنت أَجفانُ عاشقةٍ إِلى مَنْ يعشق

قال عثمان بن إبراهيم بن النضر :

أَلا يا حمامَ الأَيك مالكَ باكياً وغُصنكَ نَضْرٌ والجَنابُ مَرِيعُ
تَغَنَّ ولا تَنْشِجْ فإِلْفُكَ حاضرٌ قريبٌ وإِلْفى غائبٌ وَشَسُوعُ
بَكَيْتُ بلا دمع وترْفُضُ مُقلتى شآبيبَ منها فى المَصِيف ربيعُ
وقلبُكَ خِلْوٌ من تباريح لوعتى وقلبى بلوعاتِ الفِراق صريع

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

ويهتاج قلبي كلما كان ساكناً دعاءُ حمام لم يَبِتْ بِوُكُون
وإن ارتياحي من بُكاءِ حمامةٍ كذى شَجَنٍ داويتَه بِشُجون
كأَن حَمامَ الأَيكِ لما تجاوبت حزينٌ بَكَى من رحمةٍ لحزين

قال ابن وهبون من شعراء شرق الأندلس يصف النيلوفر وهو ضرب من الرياحين ينبت فى المياه الراكدة :

وبركةٍ تَزْهُو بِنَيْلُوفر نسيمهُ يشبه رُوح الحبيبِ
حتى إذا الليلُ دنا وقتُهُ ومالت الشمسُ لعين المغيبِ
أَطبقَ جفنَيْهِ على إِلْفِهِ وغاصَ فى الماءِ حِذارَ الرقيبِ

قال ابن سهل الأشبيلى فى جمال الطبيعة :

الأَرض قد لبست رداءً أَخضرا والطَّلُّ ينثُرُ فى رُباها جوهرا
هاجت ،فَخِلْتُ الزهْرَ كافوراً بها وحسِبتُ فيها التربَ مِسْكاً أَذفرا
وكأَن سوسنَها يصافحُ وردَها ثغرٌ يقبِّلُ منه خَدًّا أَحمرا
والنهرُ ما بينَ الرياضِ تخالُهُ سيفاً تعلَّقَ فى نجادٍ أَخضرا
وَجَرَتْ بصفحتها الرُّبا فحسبتُها كفًّا يُنَمِّقُ فى الصحيفةِ أَسطرا
وكأَنه إذ لاحَ ناصعُ فِضَّةٍ جعلتْهُ كفُّ الشمسِ تبراً أَصفرا
والطيرُ قد قامتْ به خُطباؤه لم تتخذْ إلا الأَراكةَ مِنبرا

وقال ابن سهل يصف مشهد الأصيل :

انظر إلى لونِ الأَصيلِ كأَنه لا شكَّ لونُ مودَّع لِفراقِ
والشمسُ تنظرُ نحوَهُ مصفرَّةً قد خَمَّشَتْ خَدًّا من الإِشفاقِ
لاقتْ بحُمْرَتِها الخليجَ فأَلَّفا خَجَلَ الصِّبا ومدامعَ العُشَّاقِ
سقطتْ أَوانَ غروبها محمرةً كالخمرِ خَرَّتْ من أَنَامِلِ سَاق